

الحوزة العلمية

تاريخها، نظامها ودورها في تغيير واقع الأمة

محاضرات

العلامة الشيخ عبدالهادي الفضلي

1436 - 2015

الحـــــوزة العلمـيّة

تـأريخها، نظامها ودروها في تغيير واقع الأمة

محاضرات

العلامة الشيخ عبد الهادي الفضلي

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الفصل الرابع: الشهيد الصدر وأساليب التغيير في المجتمع

التقديم

تعدّ الحوزة العلميّة الممثِّل المقبول للدِّين عند الشِّيعة الإماميِّة؛ ولهذا لعبت الحوزة بما تحمله من عمق تأريخي في وسط هذه المدرسة أدوارًا مهمّة في الأبعاد المختلفة: الدِّينية والسِّياسيّة والاجتماعيِّة.

ففي البُعد الدِّيني، تُشكِّل الحوزة الطريق الوحيد المكوِّن للشَّخصيات الدِّينية التي تقود المسيرة الشِّيعية على مستويي التَّقنين التَّشريعي، وإدارة شؤون العموم الشِّيعي.

أمّا في البُعد السِّياسي، فقد كان للحوزة العلميّة وعلماء الدِّين فيها دور بارز في التَّغيير السِّياسي في بعض البلدان ذات التَّكتل الشِّيعي الكبيرة، وقيادة المعارضات للأنظمة السِّياسية، والوقوف أمام الغزاة للوطن الإسلامي.

وللحوزة العلميِّة تأثير واضح في صياغة الحياة الاجتماعيّة للناس، وما تفاعل المجتمعات الشِّيعية بالآراء الدِّينية وغير الدِّينية

التي يتبّنها مراجع التقليد إلا دليل على عمق هذا التَّأثير، بل كثيرًا ما تؤثّر بعض الأحداث والآراء العلميَّة داخل أروقة الحوزة على اللُّحمة الاجتماعيَّة للمجتمع الشِّيعي سلبًا أو إيجابًا، والأمثلة عليه غير قليلة.

مع كلّ هذا التَّأثير للحوزة العلميَّة في تأريخ وواقع ومستقبل المجتمعات الشِّيعية في العالَم، إلا أنَّ الحوزة ـ في تقديري ـ لم تحضَ بدراسات علميَّة تسلِّط الضوء على تأريخها ومكوّناتها وأدوارها بشكل منظَّم، وبشهادات من أبنائها الذين عاشوها وتأثّروا بها.

فلا تُعدّ كتابة المذكّرات ـ مثلاً ـ أمرًا رائجًا في الأوساط الحوزوية خصوصًا عند مراجع التقلّيد، مع ما لهم من تأثير واضح على الواقع بأبعاده المختلفة، ولو وُجد شيء من هذا فسيكون مشتتًا غير منظوم وفق هدف التَّعريف بالحوزة وتوضيح أهدافها و...

العلامة الفضلي وتجربة التأريخ للحوزة العلميّة

في هذا الكتاب الماثل أمامك ـ أيّها القارئ العزيز ـ محاولة لشيء

من هذا، فهو عبارة عن محاضرات قد ألقاها شيخنا العلامة الدكتور عبد الهادي الفضلي (رحمه الله) في مناسبات متعدِّدة ترتبط بالحوزة العلميّة.

حوت المحاضرات على مجموعة من المميّزات يمكن إيجازها في التالي:

١ ـ الكشف عن العمق التَّأريخي للدِّراسات الدِّينية عند المسلمين عمومًا وعند الشِّيعة على وجه الخصوص، ومتابعة هذا العمق مع الواقع المعاصر للحوزة العلميّة الشِّيعية، فقد استطاع شيخنا الفضلي من خلال ما يمتلكه من قراءة تفصيليّة للتّراث الإسلامي بشقَّيه الشِّيعي والسُّني أن يربط بين كثير من المعطيات التي شكّلت بمجموعها تصويرًا معقولاً للمشهد التَّعليمي في العصر النَّبوي، وما بعده من عصور الأئمة وأصحابهم.

ليُبرز بعد هذه العصور حركةً تصاعديَّةً في الدِّراسات الحوزويّة، دراسةً وتدرسيًا وإنتاجًا وتأثيرًا حتى تصل هذه الحركة العلميّة إلى قمّتها في الفترة التي عاصرها في النجف والتي أطلق

عليه (**عصر السَّيد الحكيم**).

٢ـ وَضْع الشَّخصيات الحوزويّة المؤثِّرة في سياقاتها المُظهرة لأهم الأدوار التي قامت بها في الواقع الدِّيني والسِّياسي والاجتماعي، بدءًا **بالشَّيخ المفيد** (ت ٤١٣هـ) ونشاطه العلمي والثقافي التأسيسي في مدينة بغداد وانتهاءًا **بالسَّيد الصَّدر** (ت ١٤٠٠هـ) الذي أدخال الفكر الإمامي في دائرة الصِّراع الحضاري من مدينة النجف، مرورًا بالشَّخصيات الأكثر تأثيرًا خلال ألف عام تقريبًا.

٣ ـ تقييم وتقويم الواقع الحوزوي بمكوّناته التّعليمية والمرجعيّة والتَّبليغيَّة، لقد مارس الفضلي تقييمه لهذا الواقع تقييمًا واضحًا وشفافًا كما رآه وعاصره، لا كما يطمح إليه أو كما تفرضه التحدّيات؛ فمثلاً اعتبر الحوزة في واقعها متخصصِّة في علمي الفقه والأصول، وغيرهما من العلوم لا ترقى لحدّ التَّخصص.

وقوّم هذا الواقع الذي عاشه وعاصره ليرتقي إلى حدّ الرِّسالة المناطة بالحوزات في العالَم الشِّيعي، فاقترح إضافة الكثير من العلوم والموضوعات التي من شأنها أن تطوِّر الوضع الحوزوي في جوانبه

التعلميّة والتبليغيّة والمرجعيّة.

٤ ـ اعتمد العلامة الفضلي في تأريخه للحوزة العلميّة في أبعادها المختلفة طريقين أساسيين، يكشفان عن المعيارية التي يتوخّها عند حديثه عنها، هما:

ـ **طريق التَّأريخ العلمي**: ويكون هذا عبر الرّجوع إلى المصادر الأساسية التي تناولت الحوادث والشَّخصيات والمواقف التي يراد التَّأريخ لها أو ما لها ربط بها يراد التَّأريخ له، فيقوم بجمعها وتحليلها ونقدها للخروج برؤية تأريخيّة مؤيَّدة بالشواهد؛ ويُتَّخذ هذا الطريق في الأحداث التي لم يشهدها المؤرِّخ.

وهذا نراه عند الفضلي في تحديد الجذور التأريخيّة للحوزة والدِّراسات الدِّينية.

ـ **طريق التأريخ الواقعي**: وهو التأريخ من خلال المشاهدات والمطالعات المباشرة للحدث والموقف والشخصية و... والمؤرِّخ هنا سيكون هو بنفسه مصدرًا من مصادر هذا التأريخ، وهذا الطريق لعلّه الطريق الأوثق للتأريخ؛ لأنه نابع عن الحس المباشر.

وقد اعتمد الدكتور الفضلي على هذا الطريق كثيرًا في تأريخه وملاحظاته على الحوزة والجامعة.

بين يدي الكتاب

١ ـ إعداد هذه الكتاب كان لإحياء الذِّكرى الثَّانية لرحيل العلامة الفضلي في الحوزة العلمية في مدينة قم، من قِبل جامعة آل البيت (عليهم السلام) العالمية.

٢ ـ الكتاب عبارة عن محاضرات أربع ألقاها العلامة الفضلي في مدينة القطيف، على النّحو التّالي:

ـ المحاضرات الثلاث الأولى أُلقيت في الموسم الثَّقافي الصَّيفي في عام ١٤١٦هـ.

ـ المحاضرة الرَّابعة لم تؤرَّخ، ولكن من بعض القرائن يتّضح أنّها في إحدى مناطق مدينة القطيف.

٣ ـ الطريقة المعتمدة في العمل على الكتاب كانت كالتالي:

ـ تمّ تحويل المحاضرات الأربع من التَّسجيل الصوتي إلى

التَّحرير المكتوب نصًّا كما هو مسجّل، ثم مراجعته مرّة أخرى للتَّأكد من ضبط كل ما قيل فيها.

ـ تقطيع النّص وعنونته بعناوين مستوحاة من نفس المقطع، وإضافة علامات التّرقيم إليه.

ـ تحرير الكلمات العامّية والأخطاء التي يمكن أن يسبق إليها لسان المحاضر حال الإلقاء، مع محاولة أن يكون البديل للمحرَّر ـ قدر الإمكان ـ من التَّعبيرات التي يستعملها المحاضر عادة في كتابته ومحاضراته.

ـ قد يتمّ تقديم أو تأخير بعض المقاطع لغرض الحفاظ على السَّياق المنطقي للمحاضرة؛ إذ قد يكون المحاضِر قد انتهى من نقطة فاستدرك عليها بعد ذلك.

ـ أُضيفت بعض العبارات في متن المحاضرة كبعض الحروف الرابطة للجُمل أو العبارات البسيطة التي قد يقتضيها السَّياق.

ـ في بعض الحالات قد يستطرد المحاضِر في نقطة خارجة عن موضوع المحاضَرة، كأن يذكر فائدة ما أو تعليق معيّن، فتمّ نقله في

هامش النّص، ويشار إلى ذلك بعبارة (المحاضِر).

ـ محاولة جعل الكتاب متأرجحًا في أسلوبه بين المحاضرات والكتاب، للحفاظ على الأسلوب العام للمحاضِر.

ـ توثيق ما يحتاج إلى توثيق من المعلومات المذكورة في المحاضرة، وذُكرت في الهامش بدون أي إشارة.

ـ أُضيفت بعض التّوضيحات في الهامش، كالإشارة إلى مصدر للتّوسع، أو لتوضيح أمر أجمله المحاضرة أو...

ـ أُرِّخت وفيّات الأعلام المذكورين في المحاضرة في المتن، ليعيش القارئ الجوّ التاريخي للحديث.

أخيراً

أتقدّم بالشكر الجزيل كل من ساهم في إنجاز هذا الجهد، وأخصّ بالشكر بحسب تسلسل العمل:

الأختين الفاضلتين **زينب الحسين وعفاف السيحة** في تحرير المحاضرتين الأولى والثالثة.

أرشيف **مجلة إشاد الطلابية** لتزويدنا بنص المحاضرة الثالثة.

سماحة **السَّيد عبد الأمير العلي** على المراجعة والتّدقيق اللغوي.

الفنان **عبد اللطيف الفضلي** على تصميمه الغلاف الخارجي للكتاب.

ختاماً، إن كان ما بُذل من جهد يستحقّ أن يُهدى، فإنّي أرفع ثوابه إلى شيخي العلامة الفضلي (رحمه الله) وفاءًا له.

والحمد لله أوّلاً وآخرًا.

أحمد السميّن ـ قم المشرّفة

١٣ ـ ٦ ـ ١٤٣٦هـ

٣ ـ ٤ ـ ٢٠١٥م

الفصـــــل الأوّل

تـأريخ الحوزة العلميّة

من بداياته الأولى إلى عصره الذّهبي في النجف الأشرف

تمهيد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وآله الطَّيبين الطَّاهرين.

ما سأتناوله في الحديث هذه الليلة مصدرُه المحفوظات والمذكورات أو الذّكريات؛ ويرجع هذا إلى أنّي لم أستطع ـ في الواقع ـ أن أُعد للمحاضرة، لكثرة ما أن مشغول به الآن من أعمال أخرى.

ولكن سأحاول قدر المستطاع أن أوفّي الموضوع حقّه، وأُلمّ بأطرافه، وأبتدئ معه من بداياته الأولى التي انتهت إلى العصر الذّهبي للحوزة العلميّة في النجف الأشرف.

مصطلح (الحوزة)، تاريخه وتعريفه

الحوزة العلميّة مُصطلح خاصّ عند أبناء الشِّيعة الإماميّة، فهم يُسَمّون مراكز الدِّراسات الإسلامية بالحوزات العلمية. وهذا المصطلح متأخر، فلم يكن قديمًا يُستعمل، وإنّما استُعمل مؤخَّرًا واشتُهر حتى أصبح يقال: الدِّراسة الجامعية، والدِّراسة الحوزويّة.

ويعنون بالحوزات: مراكز الدّراسات الإسلاميّة. وربّما بتعبير أدقّ: المراكز الدِّراسيّة التي تتخصّص بعلم الفقه والعلوم الأخرى التي تُدرس إما كعلوم مساعدة للتخصّص في علم الفقه ـ وهي التي يُعبّر عنها في عُرف الحوزويين بالمقّدمات ـ، أو علوم أُخرى ملابسة لعلم الفقه يتطلّبها الظّرف أو الوقت؛ كعلم التفسير ـ مثلاً ـ، وكالفلسفة الإسلامية، وما شاكل هذين الحقلين من المعرفة.

نشأة الدِّراسات الإسلامية

متى نشأت الدِّراسات الإسلامية، وأين نشأت؟

كانت النَّشأة الأولى للدِّراسات الإسلامية في المدينة المنوّرة، وعلى يد النبي (صلى الله عليه وآله).

النّبي محمَّد (صلى الله عليه وآله) كما هو مُبلّغ لرسالة ربّه تعالى إلى النّاس، أيضًا هو معلِّم، وقد نجد في بعض التعبيرات التأريخية يُطلق عليه (المعلّم الأوّل).

عندما نقول (المعلّم الأول) يعني في العلوم الإسلامية، وفي العالَم الإسلامي، أو لأنّه أوّل من بدأ التّعليم الإسلامي.

وخرّج **النبي** من مدرسته جمعًا كبيرًا من الصحابة كعلماء يحمِلون حديث النبي (صلى الله عليه وآله) ويقومون بشرحه، ويحفظون الآيات القرآنية ويقومون بتفسيرها.

وكان من أبرز هؤلاء الإمام **أمير المؤمنين** (عليه السلام)، وتميّز

الإمام **أمير المؤمنين** (عليه السلام) بشيء لم يحظَ به أيّ فرد من أفراد الصحابة الآخرين؛ وهو أنّ **النبي** (صلى الله عليه وآله) كان يُملي عليه القرآن ويدوّنه، وكان يُملي عليه الحديث أوّلاً بأوّل وهو يدوّن الحديث، وكان يسأل **النبي** عن كلّ ما عنده، ويُجيبه **النبي** وهو يدوّن إجابات النبي، وإذا انتهت أسئلته يبادره **النبي** بطرح أسئلة أخرى ويجيب عليها، وهو يدوّن ويكتب.

وعُرف الكتاب الذي كان بإملاء **رسول الله** (صلى الله عليه وآله) وخطِّ عليّ (عليه السلام) بيده ـ عُرِف ـ بـ(كتاب علي). ونجد ذِكر لهذا الكتاب في الأحاديث المروية عن **أهل البيت** (عليهم السلام)، فينقلون عنه بعض الأحكام الشرعية وربّما قضايا أُخرى.

تدوين السّنة الشريفة عند المسلمين

لماذا قام الإمام **أمير المؤمنين** (عليه السلام) بكتابة هذا الكتاب، ولماذا قام النبي (صلى الله عليه وآله) بإملائه عليه؟

القرآن تكفّل الله تعالى بحفظه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ**

لَحَافِظُونَ﴾[١]، والآية ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ**﴾[٢]

فمَن يتكفّل بالحفاظ على السّنة الشّريفة؟

إنّ هذه المسؤوليّة والمهمَّة والوظيفة أُنيطت بأهل البيت، **لعليّ** وأبناء علي (عليهم السلام)، يقومون بالمحافظة على سنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ وكما دُوّن القرآن في مقابل حفظه في الصدور، ودُوّن وكُتب ليحافَظ عليه، كذلك السَّنة الشَّريفة أُمليت من قبل **رسول الله** ودُوِّنت في هذا الكتاب، ليحافظ عليها.

ونلمس أثر هذا التَّدوين للسّنة الشّريفة في كمّية الأحاديث الموجودة في كتب الحديث عند الشّيعة الإماميّة، بخاصة إذا قارنّاها بالأحاديث الموجودة في كتب إخواننا أهل السنّة.

وأقصد من الأحاديث هنا أحاديث الأحكام؛ يعني الأحاديث التي يَأخذ منها الفقيه أو يَرجع إليها الفقيه ويستنبط منها الأحكام الشرعية.

(١) الحجر: ٩.

(٢) فصّلت: ٤٢.

الموجود الآن والذي وصل إلينا ـ وطبعًا كان قبل هذا أكثر من الآن ـ ما يقرب من ستين ألف حديث، فالموجود في كتاب (وسائل الشِّيعة) وفي (مستدرك الوسائل) قريبًا من ستين ألف حديث، كلّ هذه الأحاديث في الأحكام الشرعية.

وإذا رجعنا إلى الأحاديث الموجودة عند إخواننا أهل السنة، والتي يستنبطون منها أحكامهم الفقهية، وهي مدوَّنة بكاملها في (سنن أبي داوود)، سوف نراها تقارب الستة آلاف ولا تزيد، بل لا تصل إلى ستة آلاف وإنّما تقارب الستة آلاف، وطبعًا هناك فرق كبير بين ستين ألف وستة آلاف.

من هنا، ـ طبعًا لا أريد أن أتطرَّق إلى الأسباب التي دعت إلى أن تنخفض كمّية الحديث عند السّنة، وترتفع هذه الكمّية عند الشِّيعة الإماميّة ـ فارتفاع هذه الكمّية عند الشِّيعة الإماميّة واضح، وراجع إلى أنّ **رسول الله** (صلى الله عليه وآله) كان يُملي هذه الأحاديث على **أمير المؤمنين** (عليه السلام)، وكان الإمام يكتب هذه الأحاديث، فلم يُترَك هناك حديث **لرسول الله** (صلى الله عليه

وآله) إلا وكُتب في هذا الكتاب.

أما بالنّسبة إلى انخفاض كمّية الحديث عند إخواننا أهل السّنة، فترجع إلى أسباب، لا أريد أن أَستعرض هذه الأسباب؛ فقد يطول بنا المجلس.

هذه المقارنة تُرينا مدى اهتمام **أهل البيت** (عليهم السلام) بالمحافظة على سنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

أيضًا هناك مقارنة ربّما من الفائدة أن يُشار إليها هنا: إنّ الفقه السّني بمختلف مذاهبه وُضِع ودُوّن في كتبه قبل الصّحاح، قبل كتب الحديث عند أهل السّنة، يعني قبل البخاري ـ وهو أقدم كتب الحديث عند أهل السّنة ـ، بينما الفقه الإمامي دُوّن وكُتبَ بعد صدور كتب الحديث، فأقدم كتب الحديث عندنا هو (الكافي) لثقة الإسلام **الكُليني** (ت ٣٢٩هـ). وهذا يعطينا أنَّ ما دُوّن في كتب الحديث السّنية لم تعد له تلك الأهمية؛ لأنّ الفقه سبق عليها ودوّن، هذا فارق.

فارق آخر أيضًا، يرجع إلى مدى اهتمام الشِّيعة ـ خاصّة الإماميّة

ـ في المحافظة على سنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فإنّ أكثريّة علماء الإماميّة لا يقولون بصحّة ما في كُتب الحديث المعتبرة، وإنّما يقولون لا بدّ من إخضاع الأحاديث الموجودة في هذه الكتب إلى معايير التَّوثيق، ولابدّ من إخضاعها إلى: قواعد وأصول علم الرجال، وقواعد وأصول علم الحديث؛ للتّوثّق والتّأكّد من صدورها عن **أهل البيت** أو عن **النبي** (صلى الله عليه وآله) عن طريق أهل البيت (عليهم السلام).

بينما نجد في كتب الحديث السنّية هناك اعتقاد من علماء سنة ومن ورائهم الجمهور بصحة ما في الصَّحيحين بالذّات، وهما: (الجامع الصحيح) للبخاري، و(صحيح مسلم).

هناك دراسات لكتاب البخاري ـ طبعًا لا أُريد أن أقول إنّ هذا من عندي، حتى لا أتحمَّل مسؤوليته ـ، وهي دراسات من علماء كبار لهم وزنُهم، رأوا أنّ الكثير من رُواة البخاري ـ وهم الرّجال الذين يروي عنهم البخاري في جامعه أوكتابه ـ هؤلاء قد طُعِنَ فيهم وفي وَثاقتهم من قِبل علماء أهل السنة.

لكن لماذا هذا الإصرار ـ إذن ـ على أنَّ ما في البخاري صحيح؟

حاولتُ أن ألتمس أو أتعرَّف السبب لهذا؛ فرجعت إلى أكثر من كتاب أُلّف لحياة الشَّيخ **البخاري**، ورأيت في أحد هذه الكتب: وهو يصرّح بعصمة هذا الكتاب، وأنّ جميع ما فيه صحيح، يقول: (اتّفق علماء هذه الأمّة على أنّ جامع البخاري أجلّ وأعظم من جميع كتب السّنة، بل هو أصحّ الكتب بعد كتاب الله العزيز.

وليس اتّفاق الأمّة وعلمائها على أصحّية البخاري وفضله على سائر الكتب مجرّد اتّفاق ومصادفة، ولا عن تواطؤ ومؤامرة ـ وقد أعاذ الله هذه الأمة التي اختارها لحمل دينه وتبليغ رسالته من أن تكون فريسة غفلة وغباوة، وأنّ تجتمع على الضلال ـ بل كان ذلك إلهامًا من الله، ومكافأة على ما قام به هذا الكتاب من جهاد في سبيل حفظ الأحاديث النبوية، ومعرفة رجالها ورواتها)[1].

---

(١) الإمام البخاري: إمام الحفّاظ والمحدّثين: ٩٠-٩١، نقلاً عن تأريخ التشريع الإسلامي: ٢٧٦-٢٧٧.

لا أريد أن أُناقش؛ فكلّ هذا في الواقع لا ينهض إلى مستوى الدَّليل، وحتى لو قلنا ـ تَنَزُّلاً ـ إنَّه ينهض إلى مستوى الدَّليل، فهذا الدَّليل لا ينهض إلى مستوى الإثبات.

أعود إلى ما قلتُه أوّلا: إنَّ سبب إملاء **رسول الله** لجميع أحاديثه على **أمير المؤمنين** (عليه السلام)، وكتابة **أمير المؤمنين** لهذه الأحاديث هو للمحافظة على السنّة الشّريفة.

الاجتهاد في مدرستي أهل البيت والصّحابة

لماذا المحافظة على السّنة الشّريفة؟

عندنا مصدر التشريع ومصدر الفقه المتسالم عليه هو: القرآن الكريم والحديث الشّريف. فإذا فقدنا الحديث ـ طبعًا لا نفقد القرآن؛ لأنّ الله تعالى تولّى حفظه، وتعهّد بحفظه ـ سوف نفقد لا أقول كلّ الفقه لكن ربما أكثر الفقه. وهذا الذي حدث بالنّسبة إلى الفقه السنّي.

السنّة لم تصل كمية الأحاديث عندهم إلى ستة آلاف، فاضطرّوا

أن يرجعوا إلى ما يُعرف عندهم بـ(اجتهاد الرأي)؛ وباختصار هو أنَّ للفقيه إذا لم يعثر على آية قرآنية أو حديث يستفيد منه الحكم الشرعي أن يرجع إلى رأيه، ويُقدِّر المصلحة برأيه الشخصي، أو يُقدّر المفسدة برأيه الشخصي، ثمّ يضع الحكم.

طبعًا، نحن لا نؤمن به، و**أئمة أهل البيت** (عليهم السلام) شجبوا (اجتهاد الرأي)، وما يتفرّع عنه؛ من (قياس) و(استحسان) و(مصالح مُرسَلة) و(ذرايع) وإلى آخره، شجبوا هذه بعنف، وبخاصّة الإمام **الصادق** (عليه السلام).

المحاربة لـ(اجتهاد الرأي) بدأت من **أمير المؤمنين** (عليه السلام) ثمّ مَن بعده من الأئمة، ولكن **الإمام الصادق** حَمَلَ حملة عنيفة على القياس وأصحاب القياس، وعلى الرأي وعلى أصحاب الرأي.

لماذا؟ لأنّ هذا يعطينا أنّ المُشرِّع أكثر من واحد، ونحن نؤمنُ بأنّ المشرّع هو الله تعالى وحده؛ فالقرآن من الله وحديث النبي الذي هو السنّة ـ أيضًا ـ من الله، لكنَّ القرآن كان عن طريق الوحي، وهذا الحديث كان عن طريق الإلهام أو عن طريق الوحي

أو عن طرق أخرى، المهمّ هو أنّه من الله أيضًا.

ومن هنا نقول: إنّ المشرّع هو الله.

فإذا فتحنا باب الرأي، سيكون هناك مشرِّعون آخرون بالإضافة إلى الله تعالى.

قلتُ: إنّ أوّل ما نشأت الحوزة أو الدِّراسة الدينيّة في المدينة وفي المسجد النبوي، وفي بيوت الصّحابة والأئمّة (عليهم السلام).

فكانت هناك عدّة حلَقات بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله)[1]، وكان هناك حلقة للإمام **أمير المؤمنين** (عليه السلام)، وهي بداية الدِّراسة الدينيّة بعد **رسول الله** (صلى الله عليه وآله) لمذهب أهل البيت (عليهم السلام)، ومن هنا يُعدّ الإمام **أمير المؤمنين** (عليه السلام) المؤسّس لمذهب أهل البيت.

---

(١) أنتم رأيتم الإسطوانات الموجودة هناك، فقد كانت من جذوع النخل ومن الخشب، وكان كلّ محدِّث يجلس إلى جنب إسطوانة من هذه الإسطوانات، ويحدِّث: إمّا في تفسير القرآن، أو الأحكام الفقهيّة، أو أحاديث، وبموضوعات أخرى ويقوم بشرحها. (المحاضِر)

والإمام سار على خطّ النّصوص؛ فهو يُعطي الأحكام من الآيات القرآنية والأحاديث الموجودة في كتابه التي كانت بإملاء الرسول.

في مقابل مدرسة الإمام (عليه السلام) كان هناك المدرسة السّنية الأولى ويترأّسها عمر بن الخطاب، وعمر بن الخطاب كما يذكر علماء إخواننا أهل السنّة في تأريخ التشريع الإسلامي، أنّه أوّل من دعا إلى (اجتهاد الرأي)، وأوجد هذا الخطّ.

فخطُّ النّصوص وهي الآيات والأحاديث في مدرسة أهل البيت، وخطُّ النّصوص مع إضافة الرأي في مدرسة الصحابة، أو المدرسة التي كان يترأّسها عمر بن الخطاب، وسارت الدِّراسة الدّينية على هذا.

تكوّن مراكز الدِّراسات الإسلامية

بعد المدينة، كانت الكوفة مركزًا من مراكز الدِّراسات الإسلامية، وكان للشيعة الإماميّة دور كبير في التَّدريس في هذا المركز.

طبعًا، لم يكن يُقتصر على الفقه، وإنّما كانت إلى جانب الفقه العلوم الأخرى؛ من تفسير ومن نحو ومن صرف، فمؤسس علم الصرف هو من الكوفة ومن أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام)، وكان فقيهًا في نفس الوقت[1]، وأمَرَه **الإمام الصادق** أن

---

(١) المقصود هو: أبو مسلم معاذ بن الهرّاء بن مسلم بن أبي سارة الكوفي، فهو مؤسس علم الصرف، فقد ذكره السيوطي في كتاب المزهر في علوم اللغة وأنواعها ٢: ٤٠٠.

وأمّا كونه فقيهًا من أصحاب الصادق (عليه السلام) يُفتي الناس، فقد روى الكشّي بسنده عن ابن أبي عمير عن حسين بن معاذ عن أبيه عن أبي عبد الله (عليه السلام): قال لي: بلغني أنّك تقعد في الجامع فتفتي الناس! قال: قلت:

يجلس في المسجد كما يدرّس الصرف، يجلس ويُفتي بمعنى يدرّس الفقه.

ومن الكوفة انتقل ـ امتدّ في الواقع ـ المركز إلى خراسان، وفي ذلك الوقت لم تكن تسمّى تلك المنطقة بإيران، إنّما كانت تسمّى منطقة الجنوب ببلاد فارس، والشمال يسمّى بلاد خراسان.

وبعد أن أُنشئت بغداد امتدّ المركز إلى بغداد، وأصبحت بغداد بدايات الغيبة الكبرى في عهد البويهيين[1].

وكان وجود الشِّيعة كمركز علمي مهمّ في بغداد وقت

نعم، وقد أردت أن أسألك عن ذلك قبل أن أخرج، إنّي أقعد في المسجد فيجيء الرجل يسألني عن الشيء، فإذا عرفته بالخلاف لكم أخبرته بما يفعلون، وبجيء الرجل أعرفه بحبكم أو مودتكم فأخبره بما جاء عنكم، ويجيء الرجل لا أعرفه ولا أدري من هو فأقول: جاء عن فلان كذا وجاء عن فلان كذا، فأُدخل قولكم فيما بين ذلك. قال، فقال لي: اصنع كذا فإنّي كذا أصنع. لاحظ: اختيار معرفة الرجال: ٢٥٢-٢٥٣.

(١) وكانوا من الشِّيعة، واختُلف في أنّهم كانوا من الشِّيعة الإمامية أو الشِّيعة الزيدية، المهم أنهم كانوا من الشِّيعة. (المحاضِر)

البويهيين؛ لأنّ البويهيين كانوا يسندون الحركة العلميّة الشِّيعية، فيذكر التاريخ أنّ **عضد الدّولة البويهي** ـ وهو أهمّ ملوك بني بويه ـ كان تلميذًا **للشَّيخ المفيد**[١]، و**الشَّيخ المفيد** كان من ألمع وأبرز علماء الشِّيعة في بغداد آنذاك، ويُعدّ على مدى التأريخ أيضًا من أبرز وألمع علماء الشِّيعة.

مدرسة الشَّيخ المفيد، وتلامذته من بعده

الشَّيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) بما يملك من ذكاء متّقد وصل إلى مستوى العبقرية، حاول أن يُوجِد خطوطًا واضحة للدّرس الفقهي والعقائدي الإماميّ، وعمل على هذا هو وتلامذته، ومن أبرزهم: **الشريف المرتضى** (ت ٤٣٦هـ) أخو **الشريف الرَّضي** (ت ٤٠٦هـ) الشاعر[٢]، و**الشَّيخ الطوسي** (ت ٤٦٠هـ) أيضًا كان من التلامذة الذين اعتمد عليهم **الشَّيخ المفيد**، وتوجّهوا إلى وضع

(١) لاحظ: تأريخ التشريع الإسلامي: ٣٧٠.

(٢) لعله أكبر من الشريف المرتضى.(المحاضِر)

الكتب كمقرّرات دراسيّة، وكمراجع يُرجع إليها.

وضع **الشَّيخ المفيد** كتبًا في أكثر العلوم التي تُدرَس في المراكز الشِّيعية الإماميّة، وكذلك وضع **السَّيد المرتضى** ووضع **الشَّيخ الطوسي**، وكانت مؤلَّفات الشَّيخ الطوسي في هذا المجال أكثر من مؤلَّفات السَّيد المرتضى ومن مؤلَّفات الشَّيخ المفيد.

تولّى الزّعامة بعد **الشَّيخ المفيد الشّريفُ المرتضى**.

ومن بعد **الشريف المرتضى** تولّى الزّعامة **الشَّيخ الطوسي** ـ حتى انتقل إلى النّجف ـ، وكان يُوضع له كرسي درس[١] في بغداد، وهو أعلى كرسي، وكان للشِّيعة عند **الشَّيخ الطوسي**، وهو المرجع العام

(١) والذّاهبين إلى النجف أو إلى المدينة يرون كيف يوضع نوع معيّن من الكراسي لا هو بمنبر و لا هو كرسي عادي، مصمّم بتصميم خاصّ كما هو موجود الآن في المسجد النبوي في المدينة وفي المسجد الحرام في مكة المكرمة، كذلك في النجف يوضع في المساجد من هذا الكرسي.

هذا كرسي خاص ولأنّه مصمَّم بشكل خاص ليجلس عليه الأستاذ الأعلى، الأستاذ الأعظم الأكبر، يجلس عليه و يدرِّس طلابه. (المحاضِر)

آنذاك للشِّيعة.

ونتيجة للصِّراع الذي حدث بين السلاجقة وهم الأتراك ومن السُّنة، وبين البويهيين، وانهزام البويهيين أمام السلاجقة؛ هجم السلاجقة على دار الشَّيخ الطوسي، وحرقوا كرسيّ درسه، ونهبوا شيئًا من كُتب الشَّيخ، وفَرَّ بنفسه وبعض تلامذته إلى النجف الأشرف.

وحُرقت من قِبل السلاجقة مكتبات مهمَّة جدًّا، مثل: **دار العلم** الذي أسّسها **الشريف الرَّضي**، ومكتبة **سابور** التي هي أهمّ مكتبات العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

المراكز العلميّة وأبرز رجالاتها

النجف الأشرف مركزًا علميًّا

كانت هناك في النجف قبل انتقال **الشَّيخ الطوسي** إليها دراسة صغيرة وكان فيها علماء؛ لأن في التأريخ يُذكر أنّ **عضد الدّولة** لما زار النجف وزّع شيئًا من المال على الطلاب، ومعناه أنّه كان هناك علماء وكان هناك طلاب[1].

جاء **الشَّيخ الطوسي** إلى أرض ممهَّدة وموجود فيها درس ودراسة، واستطاع هو أن يطوّر هذا المركز، ويوسّع من هذا المركز، ويعطيه أهميّته.

وفي النجف تخرّج من تحت منبر الشَّيخ الطوسي ثلاثمئة مجتهد كما يُذكر في التأريخ[2].

---

(١) تأريخ التشريع الإسلامي: ٣٧٩.

(٢) الكنى والألقاب ٢: ٣٩٥.

الحلّة مركزًا ممتدًّا من النجف الأشرف

امتدّ المركز من النجف إلى الحلّة؛ والحلّيون من **الهُذيليين والأسديين**، والسَّادة **آل طاووس**، **وبني نما** قاموا بدور كبير في مواصلة المسيرة التي بدأها **الشَّيخ المفيد**، وسار بها **الشريف المرتضى** و**الشَّيخ الطوسي** وتلامذة الشَّيخ المفيد الآخرون، وكان من أبرز هؤلاء **العلامة الحلّي**(ت ٧٢٦هـ).

إنَّ **العلامة الحلّي** أعطى للثَّقافة الشِّيعية ما لم يُعطها أي عالمٍ، لا قبله ولا بعده؛ فقد أَلَّف في كلّ مجالات الفقه، وفي كلّ مجالات الأصول ـ طبعًا ـ باختلاف المستويات في الأصول.

في الفقه مجالات مختلفة، فهناك:

- الفقه الخاصّ: وهو الفقه الذي يختصّ به عالمٍ معيّن.
- هناك الفقه المختلف فيه.
- وهناك الفقه الخِلافي: الذي يقع بين المذاهب الأخرى.
- والفقه المقارَن: الذي هو أوسع من هذا.

هو ألَّف في كلّ هذا المستويات.

ومن هنا أعطي لقب (العلامة) ولقب (آية الله)، وماكانت تُعطى هذه الألقاب إلا لمن يستحقّها، وأوّل من أُعطيت له هو **العلامة الحلّي**.

إلى كربلاء فالنجف مرّة أخرى

من الحلّة امتدّ أو رجع المركز مرة أخرى إلى النجف، وكانت كربلاء، وفي كربلاء كان هناك انقسام موجود بين الأخبارية والأصولية.

الأخبارية تمثّل منهجًا فقهيًّا، والأصولية تمثّل منهجًا فقهيًّا آخر.

وبعد كربلاء بفترة قصيرة، عادت الحركة بقوّتها في النجف، في عصر **السَّيد بحر العلوم** (ت ١٢١٢هـ) الجدّ الأعلى للأسرة المعروفة بالسادة **آل بحر العلوم**، و**الشَّيخ جعفر الكبير** (ت ١٢٨٢هـ) صاحب (**كتاب كشف الغطاء**) وجدّ الأسرة المعروفة **بآل كاشف الغطاء**.

وفي الواقع كان هذا العصر من العصور الزَّاهية في النجف،

واستمر إلى ما يمكن أن أُسمّيه بعصر السَّيد الحكيم.

النجف الأشرف في عصر السَّيد الحكيم

عصر **السَّيد الحكيم** (ت ١٣٩٠هـ) الذي عاصرناه وعايشناه.

في بداياته كان يسير على الطريقة التي سارت عليها الحوزة العلمية في عصر **الميرزا النائيني** (ت ١٣٥٥هـ) و**السَّيد الأصفهاني** (ت ١٣٦٥هـ)، ومن قبلهما **الشَّيخ الآخوند** (ت ١٣٢٩هـ) و**السَّيد اليزدي** (ت ١٣٣٧هـ)، وعصر **الشَّيخ الأنصاري** (ت ١٢٨١هـ) وهو بداية التَّجديد.

عصر السَّيد الحكيم كان في الأوج بالنِّسبة إلى الحوزة العلميّة في النجف، ولعلّه من هنا انحدرت؛ فعادةً أي حضارة تصل إلى الأوج وإلى القمّة تبدأ ثورة الحضارة بالهبوط، تأخذ بالارتفاع إلى أن تصل إلى قمّة الهرم ثم تبدأ بالهبوط.

في عصر السَّيد الحكيم كان عددًا كبيرًا من المجتهدين من أساتذة للبحث الخارج للفقه والأصول، ومن أساتذة آخرين لأنّ

بعضهم ما كان يدرِّس.

في هذا العصر ـ عصر السَّيد الحكيم ـ أُلِّف كتاب (**أعيان الشِّيعة**) **للسَّيد محسن الأمين العاملي** (ت ١٣٧١هـ) في الجانب الثقافي؛ وكتاب (**أعيان الشِّيعة**) أوسع موسوعة للتراجم، حتى الآن ولا يوجد عند المسلمين موسوعة تراجم بسعة كتاب (**أعيان الشِّيعة**)، أكثرمن خمسين مجلّدًا، في طبعته الأولى. طبعًا طُبع الآن طبعة أخرى بحجم كبير.

في هذا العصر أُلِّف كتاب (**الذَّريعة إلى تصانيف الشِّيعة**) **للشِّيخ آقا بزرك الطهراني** (ت ١٣٨٩هـ)، وأيضًا هو أوسع فهرست صدر للكتب، ليس عند المسلمين فقط بل في العالَم، فحتى الآن لم يُؤلَّف فهرست للكتب الموجودة في العالَم، لكن ككتاب لمؤلّفات طائفة لم يوجد أوسع منه.

وقد كُتب عنه ـ وهذا ليس كلامي ـ وإنّما علماء الفهارس والمكتبات كتبوا هذا، وقالوا إنَّه أوسع فهرست صدر لطائفة من طوائف المسلمين أو غير المسلمين.

وكتاب (**الذَّريعة إلى تصانيف الشِّيعة**) قام بتأليفه فرد ـ كما (الأعيان) قام بتأليفه فرد ـ في الوقت الذي يؤلَّف مثل هذه الكتب في بلدان أخرى من قِبل لجان، أو مؤلّفين متعدّدين.

فهذا فرد يقوم بجهود أفراد وبجهود لجِان.

أيضًا في هذا العصر أُلّف كتاب (**الغدير**) **للشَّيخ الأميني** (ت ١٣٩٢هـ)، وكتاب (**الغدير**) طُبع منه ١١ مجلدًا والبقية لم تُطبع، فتوفي وقد كانت غير تامّة، وتُركَت.

كتاب (**الغدير**) يتميّز بأنَّه مُمنهج بشكل أكاديمي، مع أن **الشَّيخ الأميني** لم يدرس في الجامعات، ولكنّها موهبة من الله تعالى؛ كتابة موثّقة، يعني كلّ قول يقوله في هذا الكتاب يوثّقه، من هنا نقول منهجه منهج أكاديمي، تناول العقيدة الشِّيعية في الإمامة بكلّ أطرافها.

أيضًا هذا اللون من الكتب غير موجود في الطوائف الأخرى، كتب الردود والنقود موجودة، لكن ككتاب يأخذ قضية الغدير ويتناول قضية الغدير بهذه السّعة فهو غير موجود.

في هذا العصر أيضًا أُلّف كتاب (**مستمسك العروة الوثقى**) **للسيَّد الحكيم** (ت ١٣٩٠هـ) في الفقه، وكان تجديده في الاختصار، فكُتُب الفقه مطوّلة؛ فكتاب (**الجواهر**) ثلاثة وأربعين مجلدًا، وهو أوسع كتاب فقهي عند المسلمين.

كتاب (**المستمسك**) فيه شيء من الإختصار الذي يساعد على قراءة كمية كبيرة من الفقه، فلا يستطيع الشخص أن يقرأ الفقه من أوّله إلى آخره، إنَّما يرجع إلى كتب الفقه في هذا المورد أو في ذلك المورد، قد يدرِّس باختصار دورة كاملة في الفقه، ولكن التّوسع يحتاج إلى جهد.

أيضًا في هذا العصر كان **السَّيد الخوئي** (ت ١٤١٣هـ) (رحمه الله)، ففي مرجعيّته كان امتدادًا لعصر السَّيد الحكيم.

كانت تقريرات السَّيد الخوئي في الأصول، ومحاولة إيجاده مدرسة تكامليّة، أنا أُطلق عليها هذا الاسم: **مدرسة تكاملية في الأصول**، جمعت بين مدرسة **الشَّيخ آقا ضياء العراقي** (ت ١٣٦١هـ)، و**الميرزا محمَّد حسين النائيني** (ت ١٣٥٥هـ)، و**الشَّيخ**

محمَّد حسين الكمباني الأصفهاني (ت ١٣٦١هـ)، **فالسَّيد الخوئي** أوجد هذه المدرسة التكاملية.

وكتب بعض تلامذته آراءه ونظرياته؛ يعني كتب المدرسة التي نسميها بالمدرسة التكاملية طبعت. وهذا مما يَرجع إلى حضارة هذا العصر.

في الفقه تلامذته كتبوا محاضراته، وطُبعت لكن لم أطَّلع عليها، سمعتُ بأنّها طُبعت في أكثر من عشرين مجلّدًا، وهي لعلّها دورة فقهية كاملة.

في هذا العصر أيضًا كان هناك كتاب **(الإمام الصادق والمذاهب الأربعة)**، ومؤلفه ليس بمجتهد وإنّما طالب ديني، لكنّه كان موسوعي الثقافة[1]، واستطاع إلى حدّ ما أن يقارِن بين مذهب الإمام الصادق (عليه السلام) والمذاهب الأربعة، وفيه مادّة ثقافيه جيّدة.

---

(١) مؤلِّفه هو الشَّيخ أسيد حيدر.

في هذا العصر أيضًا، كان **السَّيد الصدر** (ت ١٤٠٠هـ) (رحمه الله)، وألَّف كتاب (**فلسفتنا**) الذي عُدّ به ـ في رأي بعض الكتّاب اللاّمعين من العرب ـ أنّه أرسطو عصره، فاستطاع **السَّيد الصَّدر** في كتابه (**فلسفتنا**) أن يقارِن بين المذاهب الفلسفية القديمة والمعاصرة، إسلامية وغير إسلامية، وهو أوَّل كتاب يقوم بهذا الدَّور.

أيضًا ألَّف كتاب (**اقتصادنا**)، وكتاب (**اقتصادنا**) ـ بالمستوى الموجود عليه ـ لم يؤلَّف من قبله كتاب بهذا المستوى، واستطاع **السَّيد الصَّدر** (رحمه الله) بهذا الكتاب أن يُدخلَ الاقتصاد الإسلامي إلى عالَم الحضارة العالميّة مع الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الإشتراكي.

كان في الحضارة العالميّة اقتصادان: الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الإشتراكي، واستطاع **السَّيد الصَّدر** أن يُدخل الاقتصاد الإسلامي كاقتصاد ثالث إلى جانب الاقتصادين الآخرين.

الاقتصاد العالمي وتأثيرات عصر المعلومات

طبعًا، الاقتصاد الاشتراكي بدأ الآن يتضاءل بسبب انهيار الإتحاد السوفييتي، والاقتصاد الرأسمالي بدأ يُلملم العرش لينهزم أمام عصر المعلومات؛ فالعالَمَ الآن بكامله وبكلّ حضارته متجه إلى عصر الكمبيوتر، الذي يُسمى بعصر الإتصالات وعصر المعلومات، وهناك الآن تسابق في العالَمَ بين الأمم حول تقديم ما لديها من حضارة، والشِّيعة الإمامية ـ حقيقة ـ تنبّهوا لهذا الجانب، وإيران قامت بدور كبير في هذا المجال، فأوجدت دائرة معارف إسلامية وهومستمرة في إصدار أجزائها، وهناك دائرة معارف الفقه الإمامي الإسلامي أيضًا موجودة، وتحت إشراف **السَّيد الخامنئي**.

أيضًا هناك مؤسسة السَّيد الكلبايكاني (ت ١٤١٤هـ) (رحمه الله) أصدرت عن طريق الكمبيوتر (معجم الفقه) الذي يحتوي على

ستمئة كتاب فقهي، وحتى الآن لا يوجد لدينا ـ حتى في عالَم القوانين ـ معجم قانوني يحتوي على هذا العدد من الكتب، وكذلك في عوالم فقه المذاهب الأخرى.

هنا في المملكة قاموا بهذا الدّور، وهو تخزين الكثير من الكتب عن طريق الكمبيوتر، وكذلك في الكويت وفي مصر؛ لكن لم يصدر حتى الآن معجم فقه يشتمل على ستمئة كتاب.

الآن هناك مشروع يقام في إيران وهو تخزين كلّ التفاسير الإسلامية في الكمبيوتر، وهذا يكلِّف ـ قد نتصوَّر أنَّه بسيط ـ الملايين، ولكن سباق الحضارات أصبح يفرض علينا أن ننطلق.

المملكة العربيّة السعودية تتحرّك من جانب، مصر تتحرّك من جانب، ليبيا تتحرك من جانب، دول الخليج بما فيها الإمارات والكويت تتحرك الآن، وفي إيران ـ وبشكل واسع ـ يتحرَّكون ليضعوا مذهب أهل البيت (عليهم السلام) في مركزه الحضاري الذي ينبغي أن يوضع فيه.

الدكتور الجمالي شاهداً للحوزة العلميّة

الحوزة العلمية سواء كانت في النجف أو في قم أعطت عطاءًا ينافس ـ لا أقول يزاحم ـ عطاء الجامعات.

طبعًا أنا ربَّما أكون جامعيًّا أكثر من كوني حوزويًّا، لكن الحقيقة ينبغي أن تقال: إنَّ الدِّراسة الحوزوية تتميَّز بأصالة وعمق غير موجودَين في الدِّراسات الجامعية.

الدكتور فاضل الجمالي (ت ١٩٩٧م)[1] هو أحد السياسين العراقين، وأيضًا من أقطاب المفكرين العالميين[2].

---

(١) هناك قطع في التسجيل من بداية هذا المقطع، ولكن من السياق التالي يفهم أنّه يتحدّث عن الدكتور فاضل الجمالي.

(٢) وهو جامعي وعاش في الجامعات تخرّج في البداية من الجامعة الإمريكية في بيروت، وبعد هذا واصل في الجامعات الغربية، ولديه ست شهادات دكتوراه في فروع مختلفة للتربية، خرج من العراق بعد الأحداث، وذهب إلى

له كتاب صدر مؤخّرًا عن التَّعليم، يتحدّث فيه عن التَّعليم الجامعي ويتحدث عن التَّعليم الحوزوي.

وأتذكَّر أنَّه جاء النجف عندما كان وزيرًا للتربية، وبقي أسبوعًا يحضر أبحاث العلماء، ويتنقَّل في المساجد، ويشاهد كيف يكون التعليم الحوزوي، ويبدو أنَّه من ذلك الوقت كان يكتب هذا كمذكرات أوككتاب مؤلَّف، صدر له هذا الكتاب قريبًا. ويفضِّل فيه الدِّراسة الحوزوية بطريقتها المعروفة الآن والمألوفة على الدِّراسة الجامعية من حيث العمق، وهذا غير موجود إلا في حوزات الشِّيعة الإمامية؛ لأنَّ باب الإجتهاد لديهم مفتوح، والإجتهاد طبعا يتطلَّب الشموليَّة ولَمّ كل أطراف المسألة، والعمق للوصول إلى النتيجة السليمة.

تونس وأظن أنَّه مايزال في تونس. هو من الحركة الماسونية ـ وأنا لا أريد أن أشهّر به ـ هو يعترف بأنَّه ماسوني، ويفتخر بأنَّه ماسوني ويعتبر الماسونيّة ـ في رأيه وليس في رأينا ـ أنَّها هي العالَم الحرّ (أعدنا صياغة هذا المقطع بتقديم وتأخير فيه ليتوافق مع سياق المحاضرة).

الشهادة من **الدكتور فاضل الجمالي** تعتبر شهادة مهمّة؛ لأنَّه رجل يعتبر الآن كمفكر على مستوى عالمي، ولمّا يُعطي هذه الشهادة[1] ـ وهو جامعي وعاش في الجامعات تخرّج في البداية من الجامعة الإمريكية في بيروت وبعد هذا واصل في الجامعات الغربية وكما قلت لديه ست شهادات دكتوراه ـ ويأتي ويفضّل الدِّراسة الحوزوية على الدِّراسة الجامعية، يعني هذه الشهادة مهمة، وفي رأيي يُعتزّ بها، عندما تصدر من هكذا إنسان تربوي ولديه خبرة واسعة في مجال التربية ومجال التعليم الجامعي أيضًا.

هذه هي الدِّراسة الحوزويّة.

كنت أُريد أن أستعرض بعض ما ينبغي أن تُطوَّر إليه الحوزات؛

(١) وهو ليس حوزويًّا ربّما كان في بدايات حياته عندما كان شابًّا؛ لأنّ عمّه **الشَّيخ الكاظمي الخراساني** (ت ١٣٦٥هـ)، كان أبرز تلامذة **الميرزا النائيني** (ت ١٣٥٥هـ)، وكَتَب تقريرات **الميرزا النائيني**، وطُبع له قسم الأصول العملية، ولا أعلم هل طُبعت مباحث الألفاظ أو لا. (المحاضِر). [طُبعت تقريراته تحت عنوان (فوائد الأصول)].

لكن أخشى أن يطول، وأخشى أن أتعب أكثر، ولا أستطيع أن أُواصل، فأرجو أن تسمحو لي، وربما أتناول في وقت آخر أو بعض الإخوة العلماء يتناول هذا الموضوع.

والحمد لله ربِّ العالمين.

الفصـــل الثاني

الحوزة والجامعة

مقارنة بين الدِّراستين

تمهيد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وآله الطَّيبين الطَّاهرين.

دواعي الكتابة حول الحوزات العلميّة

من أهم الأسباب التي دعت الآخرين للكتابة عن الحوزة العلميّة في النجف الأشرف أو الحوزات العلمية عند الشِّيعة الإماميّة بشكل عام، سواء كانت تلك الكتابات بشكل مقالات نُشرت في الدّوريات اليومية أو الدّوريات الشّهرية أو الدّوريات الفصليّة، أو بشكل أبحاث ودراسات لرسائل ماجستير أو دكتوراه جامعية، من أهم الأسباب:

١ ـ بروز بعض المرجعيات في النجف الأشرف على مستوى العالمَ العربي والإسلامي، وربما أوسع من ذلك حتى في العالَم

الغربي: من هذه المرجعيات التي كانت عاملاً مساعدًا للفت أنظار الآخرين إلى الحوزات العلميّة الشِّيعية: مرجعية الشَّيخ محمَّد الحسين آل كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣هـ) صاحب كتاب (**أصل الشِّيعة وأصولها**)، الذي كان يتميّز عن كثير من المراجع الآخرين بموسوعيّته الثقافية، وبما كان ينشره في المجلاّت التي كانت تصدر آنذاك، وبالكتب التي ألَّفها وانتشرت على نطاق واسع في العالَم العربي والعالَم الإسلامي وربما في العالَم الغربي، ككتابه (**الدِّين والإسلام**) وكرسائله الكثيرة.

اشترك **الشَّيخ آل كاشف الغطاء** في كثير من المؤتمرات التي كانت تُعقد في البلاد العربية والإسلامية، ومنها المؤتمر الإسلامي الذي عُقد في القدس في فلسطين (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، في هذا المؤتمر كان الكثير من أعلام علماء المذاهب الإسلامية الأخرى، **والشَّيخ كاشف الغطاء** كان هو الذي يؤمّ المسلمين في القدس الشريف[1].

(١) لاحظ: محمَّد الحسين آل كاشف الغطاء، عقود حياتي: ١٣٥.

وهذا اللّون من الحادث أعطاه شيئًا كبيرًا من الشّهرة بين علماء المذاهب الأخرى.

بالإضافة إلى أنّه كان خطيبًا بارعًا، وخطابه في فلسطين حول فلسطين وفي القدس أروع خطاب أُلقي آنذاك.

من هنا كَثُر التّساؤل: مَن هم هؤلاء الشِّيعة الإماميّة الذين هذا الشخص مرجعهم؟ وما هي النجف؟ وما حوزة النجف؟ ما لفت الأنظار إلى البيئة العلميّة التي أنتجت مثل هذا العالِم المرجع الموسوعي.

ومن المرجعيات التي ساعدت في لفت الأنظار إلى النجف والكتابة حول الحوزة العلميّة في النجف، مرجعية **السَّيد محسن الحكيم** (ت ١٣٩٠هـ) الذي أخذ شهرته في العالَم الإسلامي والعربي وحتى في العالمَ الغربي بموقفه ضدّ المدّ الشيوعي آنذاك، وبإصداره الفتوى المعروفة ضدَّ الشيوعيين (١٣٧٩هـ) والتي كانت اللّغم القوي الذي انفجر في وجوه الشيوعيين وبدَّد تجمّعهم

وحوّلهم إلى فلول ضعيفة[١].

٢ ـ وقد تأتي أحداث، وهذه الأحداث ـ أيضًا ـ تساعد في لفت النَّظر إلى شيء ما. من هذه الأحداث التي لفتت أنظار العالَم الإسلامي والعالَم الغربي الثَّورة الإسلاميّة في إيران (١٩٧٩م): فكانت العامل القويّ في لفت أنظار الناس في عالمنا الإسلامي وفي العالَم الغربي، وكَثُر التّساؤل عن هؤلاء الشِّيعة أو عن هؤلاء المعمَّمين من رجال الدِّين الذين استطاعوا أن يُطيحوا بأقوى إمبراطورية في الشرق الأوسط ويقيموا دولة إسلامية.

فكُتِبَ عن الحوزات العلميّة بشكل تجارب لناس عاشوا في أوساط الحوزات العلميّة، وبشكل إجابات عن أسئلة وُجّهت إليهم من خلال مقابلات في الصّحف وفي المجلات.

كما حَفَزَتْ أقسام الدِّراسات العليا في بعض الجامعات الغربية وبعض الجامعات الإسلامية والأخرى العربية إلى كتابة رسائل

---

(١) للتفصيل لاحظ: أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، محمَّد باقر الصدر السيرة والمسيرة ١: ٣٥٥.

ماجستير ودكتوراه حول الحوزات العلميّة.

أهداف البحث حول الحوزات العلميّة

إنَّ محاولة الكتابة تختلف أهدافها:

١ ـ الهدف الغالب هو التّعرف على هذا اللَّون من الدِّراسة ـ التي ترقى إلى مستوى الأكاديميات العالمية المشهورة والمعروفة ـ بغية المقارنة بين هذه الدِّرسة وبين الدِّراسات الأخرى في الجامعات؛ لمحاولة الاستفادة من هذه الدِّراسة في تطوير المناهج والأوضاع الجامعيّة.

الجامعات الغربية تختلف عن الجامعات لدينا؛ الجامعات لدينا في البلاد العربية وفي البلاد الإسلامية ـ عمومًا ـ مصابة بشيء غير قليل من الجمود.

أمّا في الجامعات الغربية فهناك مؤسسات أو أقسام أو كراسي مُعدّة لدراسة كل ألوان المراكز العلميّة في العالَم لأجل الاستفادة من هذه الدِّراسة في المقارنة بين وضع الجامعة التي فيها هذا المركز الدِّراسي والجامعات الأخرى. فالجامعات عندهم في تطوّر

مستمر، فعلى رأس كل سنة يُرفع تقرير قد يضمّ أكثر من (١٠٠٠) صفحة عن واقع الجامعة، وعن ما يمكن أن يُستفاد منه مما هو موجود في الجامعات والأخرى.

من هنا، كان شيء من الانفتاح من الجامعات الأخرى على واقع الدِّراسة الحوزوية عند الشِّيعة الإماميّة؛ ليستفيدوا من الجوانب الإيجابية الموجودة فيها.

٢ ـ وقد يكون الهدف من الدِّراسة من باب (اعرف عدوَّك)؛ فعندما يتعرّفون على واقع الحوزات العلميّة يستطيعون أن يعرفوا جوانب القوّة ـ هم لا يفكّرون في جوانب الضّعف ـ في هذه الدِّراسة التي استطاعت أن تُخرِّج هؤلاء العلماء الذين استطاعوا أن يهزّوا العالَم الحضاري فكريًّا، وأن يهزّوا العالَم السياسي بما أقاموه من كيانات سياسية.

والسبب في ذلك، أنّهم إذا تعرّفوا جوانب القوّة استطاعوا ـ أو هكذا يقدّرون ـ أن يُجهزوا على هذا الجانب القوي فيضعفوه، فيَضعف النِّتاج.

وربما كانت أهداف أُخرى في البَيْن، لا أريد أن أطيل في استعراضها حتى لا أخرج عن الموضوع المحدّد.

الموضوع كما طَرح عنوانه الأخ هو: محاولة تعريف المنهج العلمي المتَّبع في الدِّراسات الحوزويّة.

سوف أُحاول أن أقارن بين الدِّراسة الحوزوية والدِّراسة الجامعية؛ والمقارنة لأجل التوضيح[1].

---

(١) هناك فرق بين (المقارنة) و(الموازنة): في مجال الاستعمال الصحفي أو ما يسير في المجال الصحفي من الكتابات العلمية لا يُفرِّقون بين (المقارنة) و(الموازنة).

فالمقارنة: محاولة معرفة نقاط الالتقاء بين شيئين ونقاط الافتراق، من دون أيّ تقييم ومن دون أيّ ترجيح، فقط نقارن بين هذا الشيء وهذا الشيء؛ فنعرف وجوه أو نقاط الالتقاء بين هذين الشّيئين ونقاط والافتراق.

وفي الموازنة: نحاول معرفة واقع الشّيئين ونتبيّن نقاط القوّة ونقاط الضعف، ثم نوازن فنرجِّح أحد الجانبين على الآخر. فهي مأخوذة من الميزان، فقد تأتي كفّتا الميزان متساويتين وقد تَرْجُح إحداهما على الأخرى.

فالموازنة: فيها نقد وفيها ترجيح، والمقارنة: دراسة ليس فيها نقد وليس فيها ترجيح. (المحاضِر)

الحوزة والجامعة: النّظام واللانظام

المفهوم أنَّ الحوزات العلميّة لا نظام فيها، لكن الواقع أنَّ فيها نظام، ودائمًا تُردَّد الكلمة التي تُنسب إلى المرجع الدِّيني **السَّيد أبي الحسن الإصفهاني** (قدّس سرّه) (ت ١٣٦٥هـ): **نظامنا لا نظام.**

ولكن الحوزة العلميّة، من خلال الدِّراسات التي كُتبت عنها بأقلام جامعيين يتّضح أنّ فيها نظام.

والفرق بين النّظام الجامعي والنّظام الحوزوي، أنّ النّظام الحوزوي (حُرّ)، والنّظام الجامعي (إلزامي).

سأوضّح الآن بعض الجوانب، فلا أستطيع أن آخذ كل الجوانب:

١ ـ الطالب في الجامعة في مرحلة البكالوريوس مُلَزم بأن يَدرس كلّ هذه المواد المقَّررة من خلال كتبها المقَّررة، خلال أربع سنوات أو خمس سنوات، ولا تزيد.

في (الماجستير) خلال ثلاث سنوات أو أربع سنوات.

في (الدكتوراه) من ثلاث سنوات إلى خمس سنوات، ولا توجد زيادة.

بينما في الحوزات العلميّة لا توجد مدَّة محددة؛ فقد تجد طالبًا يدرس كتاب **(الألفية)** في فترة طويلة تزيد عن الفترة المعتادة. وقد يدخل الطالب الحوزةَ وهو ذو عشر سنوات ويبقى إلى عمر تسعين سنة وهو يدرس في الحوزة وينتهي إلى القبر!

فالدِّراسة حرَّة من هذه الناحية.

٢ ـ من جانب آخر، يوجد نوعان من الأنظمة الجامعية:

- **الجامعات التي تعتمد على نظام السّنوات:**

أنت ليس لك فيه حرّية اختيار المدرِّس، فتُعطى للمدرِّس المادّة من قِبل مجلس القسم، ويقوم بتدريس هذه المادّة، وكلّ طالب لا بدّ وأن يخضع لهذا، وليس له حرّية الرّفض أو حرّية اختيار مدرِّس آخر.

بينما في الحوزة لا يوجد إلزام، فالطالب يأتي بنفسه يختار المدرِّس

فإن لم يعجبه، إمّا لأنَّ طريقة تدريسه لم تكن بالمستوى الذي يرغب فيه، أو لأيّ سبب آخر فيتركه ويذهب لمدرِّس آخر، وهكذا. فقد يختار في المادّة الواحدة عشرات المدرِّسين، وهذا يدخل ضمن النظام؛ فهذه الحرّية في امتداد المدّة، وهذه الحرّية في اختيار المدرِّس تدخل من ضمن النظام.

عدم الحرّية في تمديد المدّة في الجامعة، أو عدم الحرّية في اختيار المدرِّس أيضًا يدخل من ضمن النظام.

فالحوزة فيها نظام، لكن نظامها يختلف عن نظام الجامعة.

- **والآخر نظام السّاعات المعتمدة:**

كما قلنا في الجامعات دائمًا توجد محاولات لتطويرها؛ كانت الدِّراسة المعروفة هي نظام السنوات في الجامعات، وانوجد نظام السّاعات المعتمدة، وهو فيه شيء من الحرّية في اختيار المدرِّس؛ فالمادّة فيها أربعة من المدرِّسين، والطالب ممكن أن يختار واحدًا من هؤلاء الأربعة، فإذا اختار واحدًا وبعدها وجد أنّه لا يلائم

ويحصل له تضارب في الجدول فسيتخار آخر وهكذا، ففي الجامعة فيها شيء من حرِّية الاختيار.

نظام السّاعات المعتمدة فيه إلزام ولكنَّه ليس إلزامًا ضابطًا بالنسبة إلى المدَّة، تُحدّد أقل المدَّة وتُحدَّد أكثر المدَّة، للبكالوريوس ثلاث سنوات أقل المدّة وثمان سنوات أكثر المدّة؛ الطالب هنا باستطاعته أن يُنهي البكالوريوس بأربع سنوات، بخمس سنوات، بست سنوات إلى ثمان سنوات. فهناك حرّية تحرك بالنسبة للمدِّة الدِّراسية لكن ليست الحرِّية المفتوحة الموجودة في الحوزة العلمية.

أحد الدكاترة دائمًا كان يقول أن نظام السَّاعات المعتمدة هو (النظام الإسلامي)، وهو في الواقع ليس كذلك، إنَّما كان موجودًا في الدِّراسات القديمة في التأريخ ما يشبه نظام الساعات، ولعلَّه مأخوذ من نفس الدِّراسات الدِّينية التي فيها شيء من الانفتاح في التَّحرك بالنسبة إلى المدَّة.

الآن في بريطانيا بالذّات، الدِّراسة عندهم محدّدة بالمدَّة، ولكن لو وُجد طالب نابه ذكي يستطيع أن يقطع المدَّة بسرعة، يُفسح

المجال إليه؛ في السنة الماضية نُشر في الصحف عن طالب عمره ١٦ سنة تخرّج من الجامعة.

هم يأخذون بنظام المجموعات فكل مدرِّس يُشرف على مجموعة من الطلاب، في بعض المدارس لا يزيدون عن اثني عشر طالبًا وفي بعضها إلى خمس وعشرين، فإذا رآى طالبًا ذكيًّا يُعطيه فترة شهر أو شهرين لمراجعة المقرَّرات الدِّراسية ثم يجري له امتحان، ثم ينقله إلى الصف الذي بعده وهكذا، فقد يُنهي الابتدائية في سنتين، ويُنهي المتوسطة والثانوية في سنتين، ويلتحق بالجامعة وفيها هكذا.

هذا الشيء يلتقي إلى حدّ ما، وربما استفادوه من الدِّراسات الدِّينية القديمة كما يُذكر في التاريخ.

هذا شيء يلتقي مع الدِّراسة الحوزوية؛ فالطالب يدخل الحوزة إذا كان طالبًا عنده شيء من النبوغ يستطيع أن يُنهي المقدِّمات بسنتين، ويُنهي السُّطوح في ثلاث سنوات أو أربع سنوات، ويحضر البحث الخارج، وفيه يكفيه في مثل هذا أن يحضر سنتين ويصبح

مجتهدًا، ففي ظرفية عشر سنوات أو أقل من عشر سنوات ربما ثمان سنوات ويكون مجتهدًا.

فهناك طالب يبقي يحضر البحث الخارج خمسين سنة، ويطوي على يديه مجموعة من المجتهدين، يُدخلهم القبور ويبقى ذلك الإنسان المتأخّر الذي لا يستطيع أن يعرب حتى الجملة البسيطة.

فالاعتماد في طيّ المدَّة أو امتداد المدَّة على مدى استعداد الطالب في الحوزة واهتمام الطالب بذلك.

٣ ـ شيء آخر، الحوزات ليست فيها إدارة، أمّا الجامعات فيها إدارة، ففيها مدير إدارة وموظفين، وربما في بعض الجامعات بالآلاف، خاصة إذا كانت الجامعة فيها نصف مليون طالب أو أكثر أو أقل بقليل.

الحوزات ليس فيها إدارة، فإذا ذهبت إلى الحوزة ـ الآن ـ في النجف أو في قم لا تجد مكتبًا يستقبلك كإدارة للحوزة، فيها طالب وفيها أستاذ وفيها كتاب؛ فنظامها يقوم على هذه الفكريَّات الثلاثة.

أمّا الجامعة فيها طالب وأستاذ وكتاب وفيها إدارة.

هذا جانب أيضًا يدخل في المقارنة.

الحوزة والجامعة في مراحلهما الدّراسية

١. المراحل الجامعيَّة:

في الدِّراسة المَدَنيّة[1] أو الحديثة، الطالب يقطع المرحلة (الابتدائية)، بعد هذا المرحلة (المتوسطة)، ثم المرحلة (الثانوية)، ثم المرحلة الجامعيّة، ثم ينتهي إلى البكالوريوس أو الماجستير، وآخر مرحلة هي الدكتوراه.

فالدِّراسة الجامعيّة في أكثر الجامعات ـ طبعًا ـ ثلاث مراحل: الدِّراسة العالية وهي البكالوريوس، ودراسة العليا فيها الماجستير وفيها الدكتوراه.

---

(١) تسمى الدِّراسات في المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعات (الدِّراسة المَدَنِيّة)، في مقابل الدِّراسة في الحوزات بأنَّها (دراسة دينيَّة) جاءنا هذا التعبير ويُهدف إلى شيء من ورائها، ولكن لا يوجد لديّ ألفاظ الآن. (المحاضِر)

وكثير من الجامعات خاصّة في الغرب لا يوجد فيها ماجستير، فهذه المرحلة تؤخذ بدراسة مواد، ليس بكتابة رسالة أو كتابة أبحاث، هذه الجامعة قد ترى هذا أفضل، وتلك الجامعة ترى ذلك أفضل، وهذا لا يعنينا.

٢. المراحل الحوزويَّة:

المراحل في الدِّراسة الحوزويِّة ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تُسمّى دراسة المقدِّمات.

المرحلة الثانية: يُسمّونها دراسة السُّطوح[1].

المرحلة الثالثة: مرحلة البحث الخارج.

١.٢ مرحلة المقدّمات:

تُدرس فيها مجموعة من المواد العلميّة التي تساعد الطالب على التخصص في الفقه وأصول الفقه. هذه العلوم التي تُدرس في

(١) وأصل استعمال كلمة (السُّطوح) لهذه المرحلة استعمال فارسي وليس عربيًا. (المحاضِر)

مرحلة المقدّمات لا يوجد فيها سنوات محدّدة، قد تستمر عشرين سنة وقد تنتهي في سنة، تعتمد على الطالب وعلى الأستاذ.

والعلوم التي تُدرس في المقدِّمات:

١.١.٢ علوم اللغة العربية:

ويدرس منها كمواد أساسية: الصّرف والنحو وعلوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، لابدّ أن تُدرس من قِبل كل طالب من الطلاب. قد يحاول بعض الطلاب يحاول أن يتوسّع لكن هذا شي غير أساسي وكان موجودًا في النجف وربما حتى الآن موجود، يحاول الطالب أن يدرس العروض، أو متن في لغة، وفي الجامعة لا تُدرس هذه المادة، وإنَّما تُدرس مادّة المعجم والدّلالة.

والكتب المقَّررة في هذه المرحلة بالنسبة لعلوم اللغة العربية، وهناك علوم أخرى سنشير لها.

في علم النحو

والكتب فيه تأخذ مسارين: مسار الدِّراسة عند غير العرب،

ومسار الدِّراسة عند العرب.

عند العرب كما كان في عهدنا ـ وأمَّا الآن لا أعلم ربما صار تطوّر ـ:

- **كتاب (الأجروميّة):**

من تأليف ابن آجرّوم (ت ٧٢٣هـ)[١]، واسم الكتاب مأخوذ من اسمه، هو من أهل المغرب من صَنْهَاجَة، ولهذا لقبه الصَّنهاجي، وينتسب إلى قبلية بربرية.

الكتاب عبارة عن متن في النَّحو صغير، والمتن يعني كُتيّب صغير، إمَّا نثري أو شعري، يُكتب بعبارة مضغوطة من أجل أن يُحفظ[٢]. والآجرومية متن في النَّحو ومن أشهر المتون النَّحوية،

---

(١) هناك ظاهرة في الحوزة العلمية أن الطالب لا يهتم بمعرفة المؤلّف، ولا يدرسون تأريخ العلم، في الجامعات لا بد من دراسة تأريخ العلم قبل العلم، ويأخذون فكرة عن هذا العلم: متى نشأ؟ وكيف تكوّن؟ وما هي أهم النظريات التي مرت خلال تأريخ نشوء وتطور هذا العلم؟ (المحاضِر)

(٢) في الحوزات المصريّة في الأزهر عندهم عادة الحفظ شيء أساسي، فتجد

ومن أقدم ما طُبع من المتون النَّحوية[١].

(الأجرومية) هذه ترجمت إلى كثير من اللغات الأخرى التي تدرِّس اللغة العربية في الجامعات وعليها شروح كثيرة أيضًا.

- **كتاب (شرح قطر النَّدى وبلّ الصدى):**

بعد هذا يُدرس في النحو أيضًا شرح (قطر النَّدى)، وهو متن **لابن هُشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)**، عالم نحوي مصري، هو قام بنفسه بهذا الشرح، وعلى الشرح حواشي[٢].

الطالب عندهم يحفظ القرآن الكريم وهذا مطلوب، ويحفظ من هذه المتون النثرية والشعرية الشيء الكثير، فأساس تأليف هذه المتون بشكل مختصر لأجل أن تُحفظ. (المحاضِر).

(١) أقدم كتاب باللغة العربية طُبع سنة ١٥١٤م، وهو كتاب (السَّاعات السَّواعي) في الصَّلوات اللَّيلية عند المسيحيين. وبعد هذا طُبع القرآن الكريم أيضًا سنة ١٥٣٠م في إيطاليا. (المحاضِر).

(٢) (الحواشي) و(الذّيول) و(حواشي الحواشي) غير موجودة في الجامعة؛ لكن موجودة في الحوزات. تجد المتن عليه شرح، والشَّرح عليه حاشية ـ يعني

- **كتاب (شرح ألفيّة[1] ابن مالك):**

بعد أن ينتهي من (**شرح قطر النَّدى**) في النَّحو، ينتقل إلى (شرح الألفية)، والذي يدرسه العرب في النجف آنذاك (**شرح ابن النَّاظم على ألفية ابن مالك**)، أخيرًا بعضهم أخذ يدرس (**شرح ابن عقيل على الألفية**).

ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، أندلسي من جَيَّان، وانتقل إلى دمشق وأصبح عالمٍ من علماء دمشق، وهو مالكيّ المذهب.

قام ابنه **بدر الدِّين** (ت ٦٨٦هـ) بشرح الألفية.

والألفية عليها أكثر من مئة شرح.

شرح آخر ـ وقد يكون على الحواشي حواشي.

وهي حاشية لأنّهم يكتبونها على الجوانب على الطَّريقة القديمة عندما كانت الكتب تُكتب بخطّ اليد. (المحاضِر)

(١) الألفية: عبارة عن ألف بيت شعري يتناول أهم مسائل علم من العلوم، ليسهل على الطالب حفظ مسائل ذلك العلم، وهي ما تُسمى بـ(الأرجوزة).

- **كتاب (مغني اللّبيب عن كتاب الأعاريب):**

بعد **الألفية** يُدرس **(مغني اللَّبيب)** أيضًا، وهو كتاب في الحروف والجُمل، في النحو، وهو لابن هُشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ).

هذا في الجانب العربي لدراسة علوم اللغة العربية.

في الجانب الأعجمي ويشمل: الفرس والتّرك والأفغان والهنود والشَّركس، وغيرهم من القوميّات المختلفة التي كانت تأتي إلى النجف وتشكِّل أشبه بهيئة أمم من كل جانب.

و**الدكتور الجمالي** (ت ١٩٩٧م) أخذ إحصائية ـ أنا كنت بالنجف ولا أعلم كم عدد الوافدين من التِّبْت مثلاً، والذين يُسمّون في النجف (التَّبتيّة) ـ هو أخذ إحصائيات كاملة وذكرها في كتابه في الوقت الذي زار فيه النجف.

يبدأون بكتاب (جامع المقدّمات)، فيه مجموعة من المتون باللغة العربية وباللغة الفارسية، فيه: صرف ونحو ومنطق ولغة، إذا أكملوه ينتقلون إلى شرح السيوطي على الألفية.

الأعاجم بشكل عام يعتقدون بأنَّ من لا يدرس شرح السيوطي

فإنّه لا يفهم النحو، كما أنّنا العرب نعتقد بأنّ من لم يدرس شرح ابن النَّاظم فلم يفهم النحو.

وهذا شيء من التَّقديس للكتاب موجود في الحوزات، وهذا فارق بين الجامعات وبين الحوزات.

في علم الصرف

- **كتاب (شرح الشَّافية):**

في الصرف يُدرس في الغالب أو الكتاب الأساسي شرح لشافية **ابن الحاجب** (ت ٦٤٦ هـ)، وهو من علماء المالكيّة وهو فقيه، ولديه كتاب في النَّحو اسمه (**الكافية**)، ولديه كتاب في الصرف اسمه (**الشَّافية**).

وعليه شروح متعددة، منها (**شرح النِّظام**)[(١)].

وبعضهم قد يختصر ويدرس كتاب (**مَراح الأرواح**)، أو

(١) هم يسمّونه شرح النَّظام، وهو شرح نِظام المُلك. (المحاضِر)

وبعضهم يدرس أقل من هذا وهو كتاب (**شذى العرف**)، أو كتاب (**المنيف**).

في علوم البلاغة

والكتب المقَّررة في البلاغة وهي:

- كتاب (مختصر المعاني).
- و(**المطوَّل**).

٢.١.٢ العلوم العقليّة:

في علم المنطق

في مرحلة المقدِّمات يُدرس أيضًا علم المنطق، وهو مادّة أساسيّة في الحوزات، والكتب التي تُدرس في وقتنا:

- **كتاب (حاشية ملاّ عبد الله)**[١]:

(١) كلمة (ملاّ) تُستعمل هنا ـ في منطقة شرق الجزيرة العربية ـ للخطيب الحسيني، أمّا في النجف تُستعمل للمرأة التي تتعاطى الثقافة الحسينية ولا

هناك متن يسمّى متن التَّهذيب في المنطق للتفتازاني، هو متن صغير من أجل أن يُحفظ، ومطبوع بشكل صغير حتى يحمله الطالب في جيبه ليحفظه. عليه شروح كثيرة منها حاشية ملا عبد الله.

- **كتاب (شرح الشَّمسية)**[١]:

هناك كتاب آخر في المنطق، وهو (**شرح الشَّمسية**)، وكان

تستعمل للرجل، ويُسمّى عندهم الرّجل القارئ للعزاء (روزخون).

ولقب (ملاّ) هو أعلى مرتبة علمية في الحوزة، وما كانت تُعطى إلا للعالِم المتضلّع المتبحِّر المحقِّق مثل: صاحب (الكفاية) الملا الآخوند، وملا هادي السبزواري المعروف بتحقيقاته في العلوم العقليّة.

وملا عبد الله كان فقيهًا ومن العلماء، ويبدو كان متضلعًّا في العلوم العقلية، والمنطق من العلوم العقليّة؛ وعليه أخذ هذا اللقب.

وذريته موجودون في النجف ويعرفون بـ(الملالي).

في الجامعات أعلى مرتبة علمية يُعطى صاحبها لقب (بروفسور) وترجمتها (أُستاذ كرسي) أو (أُستاذ). (المحاضِر)

(١) لقطب الدّين الرازي (ت ٧٦٦هـ)، وهو شرح للرسالة الشمسية لنجم الدِّين الكاتبي القزويني.

يدرس في ذلك الوقت.

- **كتاب (المنطق):**

بعد هذا أصبح يُدرس كتاب (**المنطق**) **للشيخ المظفَّر** (ت ١٣٨٣هـ).

في علم الكلام

في هذه المرحلة قد يدرس الطالب ـ وهو شيء شبه أساسي، ولكنّه ليس أساسيًّا ـ علم الكلام؛ فيدرس:

- **كتاب (الباب الحادي عشر)**[1].
- **كتاب (شرح تجريد الاعتقاد):**

ويُدرس شرح من شروح كتاب (**التَّجريد**)، وعادة الشَّرح الذي يُدرس هو شرح **العلامة الحلِّي** (ت ٧٦٢هـ) على كتاب (**تجريد**

(١) للعلامة الحلّي (ت ٧٦٢ هـ).

الاعتقاد) للخواجة نصير الدِّين الطوسي (ت ٦٧٢هـ)، واسمه (**كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد**).

٣.١.٢ علم أصول الفقه:

- **كتاب (معالم الدِّين وملاذ المجتهدين)**:

في الأصول يُدرس كتاب (**المعالم**)[١]، ويُلحقونه بالمقدِّمات؛ لأنَّه صغير الحجم، ولكنَّه كبير من حيث العلم والفائدة.

٢.٢ مرحلة السُّطوح:

بعدها ينتقل الطالب إلى مرحلة السُّطوح.

لماذا سُمّيت سُطوح؟

الطالب يتخصَّص في الفقه والأصول؛ في مرحلة السُّطوح يَدرس الفقه والأصول، وفي مرحلة الخارج يَدرس أيضًا الفقه والأصول، إذن ما هو الفارق بينهما؟

الفارق أنَّه في مرحلة السُّطوح تكون الدِّراسة سطحية فليس

(١) للشيخ حسن بن الشهيد الثاني (ت ١٠١١هـ).

فيها استدلال ـ وهذا معنى سطحية ـ ولهذا سمّوها سطوح.

تدرس فيها كتب معيَّنة، كانت في ذلك الوقت كالتالي:

١.٢.٢ علم أصول الفقه:

- **كتاب (القوانين) في أصول الفقه**[١].
- وكتاب **(الكفاية)**: للآخوند الملاّ **الشَّيخ محمَّد كاظم الخراساني** (ت ١٣٢٩هـ).
- **وكتاب (الرَّسائل)**: **للشَّيخ مرتضى الأنصاري** (ت ١٢٨١هـ).

٢.٢.٢ علم الفقه:

في الفقه كان يُدرس:

- **كتاب (شرح اللُّمعة الدّمشقيّة)**:

متن (اللّمعة) **للشَّهيد الأول** (ت ٧٨٦هـ)، والشَّرح **للشَّهيد الثاني** (ت ٩٦٦هـ)، وكلاهما عامِلِيّان من لبنان، وكلاهما استشهد

(١) للميرزا القمّي (ت ١٢٣١هـ).

في حوادث تُذكر في التاريخ.

- وأيضًا، يُدرس **كتاب (المكاسب)**: للشَّيخ الأنصاري.

طريقة الدِّراسة، وهذا الذي يرتبط أيضًا بالمنهج.

كيف تُدرَّس هذه المواد العلميّة التي ذكرناها الآن، سواء في مرحلة المقدِّمات والسُّطوح؟

طرق التَّدريس في الدِّراسات الحديثة

١ ـ نحن في الابتدائيات والمتوسِّطات والثَّانويات والجامعات، يُحضِّر المدرِّس الدَّرس من خلال الكتاب المقرَّر، وقد يُراجع بعض الكتب، وقد يقتصر على الكتاب المقرَّر، ويلقي الدَّرس هكذا من دون أن يفتح الكتاب، يسمون هذه الطريقة من التَّدريس (**طريقة المحاضرة**).

فلا يوجد كتاب يُفتح، وقد يَستعمل وسيلة إيضاح أو سبورة أو خريطة.

٢ ـ وقد تُستعمل في الدِّرسة الحديثة (**طريقة السؤال والجواب**)؛ يطرح المدرِّس سؤلاً على الطلاب، ويجيب أحد الطلاب ويناقِش الجواب، ويطرح على الآخر وهكذا. وهذه طريقة من الطّرق، ولكن (طريقة المحاضرة) هي السَّائدة أكثر من الطّرق الأُخرى.

طرق التَّدريس في الحوزات

١ ـ في الحوزات، تُستعمل (**طريقة شرح العبارة**): يفتح الأستاذ والطلاب الكتاب، ويَقرأ العبارة: سطرًا أو سطرين أو مقطعًا من الموضوع، ويبدأ بالشَّرح.

هذا الشَّرح تكون فيه فائدة غير موجودة في (طريقة المحاضرة)، وهي أنَّه من خلال الشَّرح قد تأتي كلمة يضطر أن يُعطي معناها اللُّغوي، وربما يُعطي أكثر من معنى لغوي، ويقرِّر أن هذا المعنى المعيّن هو الذي يُراد.

أو تأتي كلمة تحتاج إلى إعراب يُعربها، أو هذه الكلمة تحتاج إلى أن يستطرد ويذهب إلى علم آخر فيتحدَّث عن هذا الموضوع.

فهذه الطريقة حركة داخل دائرة معارف علميّة، يخرج الطالب ليس بالمادّة المقَّررة فقط، وإنَّما إلى جانب المادَّة المقَّررة يخرج بمجموعة من المعارف المختلفة قد ترتبط بهذه المادّة، وقد لا ترتبط بهذه المادّة.

فإذا كان المدرِّس تربويًّا[1]، فالطالب ينتفع فائدة كبيرة.

هذه من حسنات (شرح العبارة).

أمّا الجانب السَّلبي فيها، فإذا كان المدرِّس غير تربوي، وكان المدرِّس يريد فقط ضخّ المعلومات، ويكون حافظًا ويريد أن يتحرّك في المادّة قد يكون فيها جانب سلبي، وهو أنَّ الطالب لا يحتوي الفكرة بالشكل المطلوب.

---

(١) المدرِّس قد يكون مدرِّسًا، وفي نفس الوقت تربويًّا. ما معنى التَّربوي؟ يعني يفهم كيف يوصل الفكرة المطلوبة أو مادَّة الدَّرس المطلوبة إلى ذهن الطالب، ويستعمل ما عنده من أساليب، من خلال الحديث والإشارة والتَّوضيحات الأخرى، وهذا المدرِّس التربوي، وعلى عكسه المدرِّس غير التَّربوي. (المحاضِر)

هذه مما يدخل في المنهج هنا.

(البحث الخارج) الأُسلوب الحوزوي المميّز

١ ـ في البحث الخارج، أوّل شيء فيه أنّ الأستاذ الذي يقوم بتدريسه ـ عادةً ـ يكون مجتهدًا.

٢ ـ ولا يستعمل كتاب، ولا يستعمل (طريقة شرح العبارة)، ولكن يعتمد على كتاب من الكتب، يكون منطلَق البحث عنده، وقد يأتي البحث بشكل شرح لذلك الكتاب.

٣ ـ الطريقة التي تُستعمل في البحث الخارج:

ـ يُحرِّر المجتهد أو الأُستاذ المسألة ـ هو تعبير قديم، ولا زال يُستعمل في الحوزات ـ؛ يعني يوضّح الموضوع الذي يُريد أن يتحدَّث عنه وفيه، مثلاً: (طهارة الإنسان، ونجاسة الإنسان)؛ يوضِّح المعنى الذي يتحدَّث عنه.

ـ بعدها يستعرض الأقوال في المسألة، من يقول: حرام، واجب، وآخر يقول مستحب، أو آخر يقول صحيح، وآخر يقول

باطل، يستعرض كلّ الأقوال للعلماء في المسألة.

ـ ثم يأتي بدليل كلّ قول من هذه الأقوال، ويوضِّح الدَّليل.

ـ بعد هذا يقوم بالموازنة بين الأدلة، بما يمتلك هو من خلفيَّات ثقافية، وبما يمتلك من موهبة ذكاء، فللذكاء مدخليَّة كبيرةٌ وبما يمتلك من ذوق، وللذوق أيضًا مدخلية هنا.

فيوازن بين هذه الأدلَّة، بما عنده من قواعد وأصول ومبادئ وثقافات أخرى ويرجّح، فقد يتبنَّى أحد الأقوال، وقد يأتي بقول جديد.

هذه الطريق غير موجودة إلا في الحوزات، وهنا تميّزت الحوزات بالعمق في الدِّراسة، عمق في البحث، عمق أفقي ـ الشمولية كما في لغة الجامعات ـ بحيث يلملم كلّ ما يرتبط بالموضوع.

وعمق طولي، يذهب مع الأدلَّة إلى جذورها تمامًا؛ يعني لا يمرّ بالأدلَّة مرورًا عابرًا أو مرورًا هامشيًّا أو يعاملها معاملة سطحية، إنَّما ينزل إلى الأعماق والجذور مع هذه الأدلة.

العملية التعليميّة ودخالة الإيمان والتّقوى

قد يُتسائل عن السَّبب الذي يدعو الأُستاذ في الحوزات العلميّة إلى هذا التَّوسّع الأفقي والتّعمق الطّولي في البحث؟

عنصر الإيمان، عنصر التَّقوى، عنصر الخوف من الله، وهذا ما نفتقده ـ حقيقة ـ في الجامعة ـ طبعًا أنا جامعي ـ ولكن هذا الواقع: عنصر الإيمان، عنصر التقوى، هذا نفتقده في الجامعات.

لكن في الحوزات هذا العنصر موجود فيها، هذا الإنسان البسيط الزَّاهد يجعل أمامه مسؤوليته أمام الله عندما يريد أن يدرِّس هذه المادة في البحث الخارج؛ لأنّه سيتوصّل إلى حكم، ويقول هذا حكم الله في حقّ مقلّديه، طبعًا الله سيحاسبه على هذا.

لهذه الناحية هو يحاول أن يتعمّق أفقيًا وطوليًا، ويخرج برأي أصيل، ويتميّز هذا اللَّون من البحث الخارج بالأصالة وبالعمق، وأظن هذا واضح الآن.

وشيء آخر نفتقده في الجامعات، والآن أصبحنا نفتقده بشكل رهيب، وكتابات كثيرة كُتبت حوله وأصبحت مملة، وصلت إلى مستوى السَّاسة يتحدَّثون عنه خاصة في الغرب، هو الجانب الأخلاقي(١).

عندما يتفاعل الأستاذ مع الطالب، والطالب يتفاعل مع الأستاذ، تتكون بينهما علاقة تبادل، الأستاذ قدوه بالنِّسبة للطالب، والطالب يتأثّر بالأستاذ في هذه الناحية.

يلعب الجانب الأخلاقي دورًا هنا.

في الحوزات، الجانب الأخلاقي ـ طبعًا عندما أقول الجانب الأخلاقي أعني جانب الفضيلة، أو الأخلاق الحسنة ـ محافظ عليه؛ فالطالب يرى الأستاذ أمامه إنسان ملتزم، والصدق موجود في كلامه، والعفّة موجودة في منطقه، إلى آخره من هذه السّلوكيات الفاضلة.

---

(١) طبعًا الأخلاق على قسمين: فضائل ورذائل، أو أخلاق حسنة وأخلاق سيئة.(المحاضِر)

بينما هذا الجانب في الجامعات مفقود، لهذا هناك دعوة قوية الآن في العالم الغربي لإدخال مادَّة الدِّين كمادَّة أساسية؛ فلو رَسَبَ الطالب في الدِّين فيُعتَبر راسبًا في كل الدّروس، لماذا؟ لأنَّ الإحصائيات التي تكون نتيجة الدِّراسات الاجتماعية رهيبة جدًّا، مثل إحصائيات (منظمة الصَّحة العالمية): ٥٠ مليون حالة إجهاض، يعني عن طريق غير شرعي،و٥٠ مليون عدد رهيب.

وهذه الممارسات في الغالب تكون في المؤسسات التَّعليمية كالجامعات، وهناك دعوة قوية للاستفادة من الجانب الأخلاقي والجانب الإيماني الموجود في الدِّراسات الحوزوية.

شيء آخر وهو عامل نفسي مهم، أنا عايشته في الحوزات وعايشته في الجامعات، إذا كان الأستاذ يحترم نفسه ـ يعني إنسان مؤمن، متَّقي، سلوكه حسن ـ فالطالب يحترمه ويتأثر به، وإذا كان الأستاذ لا يحترم نفسه فالطالب لا يحترمه ولا يتأثَّر به أبداً.

التَّاثير التَّربوي يحتاج إلى احترام، إذا أردتَ التَّأثير التَّربوي على الآخرين، اكسب احترامهم أوَّلاً، وبعد هذا حاول أن تؤثّر.

هذا عنصر موجود في الحوزات وغير موجود في الجامعات، وهناك دراسات قويّة حول هذا الموضوع. ومن السَّاسة الذين طالبوا بهذا الجانب أمير ويلز (تشارلز) ولي عهد بريطانيا إلى الآن، هو ينادي بإدخال مادَّة الدِّين، وفعلاً أُدخلت في مدارس بريطانيا مادة الدِّين كمادَّة أساسيَّة ومادَّة إلزامية بالنِّسبة للطلاب.

الحوزة والجامعة: الأماكن، التمويل والاستقلاليّة

١. أماكن الدِّراسة

بالنِّسبة إلى أمكان الدِّراسة، في الجامعات أنتم عشتم في المدارس وعارفين بالفصول الدِّراسية الموجودة، مع وجود سكن للطلاب.

الحوزات العلميّة يوجد فيها سكن، وتُبنى مدارس فيها غرف، قد تكون قليلة وقد تكون كثيرة، ويوضع في كلّ غرفة إمّا طالب واحد أو طالبين اثنين، كسكن.

أمَّا أماكن الدِّراسة قد تكون نفس الغرفة، فالطالب يأتي للأُستاذ في غرفته، أو الأُستاذ يأتي للطالب في غرفته.

وقد تكون في المساجد، وفي المساجد أكثر، وأكبر مسجد في النجف كمركز أو قاعة هو الجامع الهندي، القريب إلى الصحن الشريف.

وإذا كان الطالب واحدًا، فيقابل كل من الأُستاذ والطالب الآخر في الدَّرس، وكل منها فاتح كتابه.

وإذا كان أكثر من طالب يتحلَّقون، فيشكل الطلاب حلقة، أو دائرة حول الأُستاذ، والأستاذ فاتح الكتاب وهم فاتحون كتبهم يقرأون.

فلا توجد أماكن معيّنة، هذا الفصل الأوَّل والثَّاني، وتذهب إليه، فإذا لم يعجبك هذا المكان تذهب إلى مكان آخر، أو إذا أتيت ورأيت أن المكان مأخوذ تذهب إلى مكان ثانٍ، وإذا كان هذا المسجد بعيد، يذهبون إلى قريب، أو هذا المسجد فيه أصوات كبيرة يذهبون إلى مسجد آخر.

البحث الخارج، إذا كان الأُستاذ من العلماء الكبار يُدرِّس في المساجد، ويجعلون له منبرًا، وهو موروث في هيئته فله هيئة خاصة، وإن كان بعضهم يستعمل المنابر الخاصة للخطابة الحسينية أيضًا.

وإذا لم يكن من المراجع الكبار فإنّه يُباحث في منزله أو في مسجد صغير أو في حسينيَّة صغيرة، وطلابه أمامه ويدرِّسهم بهذه الطريقة.

٢. التَّمويل المالي والاستقلاليَّة

سأذكر شيئًا أخيرًا يرتبط بالتّمويل، وهو شيء مهم جدًّا.

من أين تموّل هذه الحوزات، ومن أين تموّل الجامعات؟

١ . الجامعات الحكومية، تموَّل من قِبل الحكومة، الدَّولة تموّلها، فيخصصّون لها من الميزانية أو الموازنة، مثلاً جامعة الملك سعود في الرياض ميزانيتها كذا، جامعة الملك عبد العزيز في جدّة كذا، العراق، سوريا، وكذلك في مصر. الجامعات الحكومية الحكومةُ تُدخلها في موازنتها وتعطيها حصصها.

٢ ـ الجامعات الأهلية، تأتيها مساعدات من حكومة البلد، وتعتمد على الأُجور التي تأخذها من الطلاب.

وقد يكون هناك بعض الموقوفات أو التَّبرعات.

٣ ـ الحوزات العلميّة، تمويل الحوزة فقط يُحتاج فيه لرواتب الطلاب والأساتذة، ولا يوجد شيء آخر.

الجوانب الأخرى كالمشاريع، المرجع هو المسؤول عنها.

والتَّمويل يأتي من الحقوق الشرعية/ الأخماس، هذه الأخماس

تُؤخذ وتُوزع كرواتب للطلاب وللأساتذة. هناك موقوفات لكن الاستفادة منها قليل، هناك مثلاً موقوفة الهند المعروفة التي كانت سنوية يُرسلونها للنجف، وانقطعت بعد ذلك، ولم تعد تأتي الآن.

فالاعتماد الأساسي على الحقوق الماليّة الشَّرعية/ الأخماس، وهي تُؤخذ من عامّة النَّاس.

هذا الفارق سيُعطي استقلالية للحوزة عن الحكومة، ولا تستطيع الحكومة أن تتدخل في شؤونها، فليست لها يد عليها حتى تتدخَّل في شؤونها.

فمن هنا تُعتبر الحوزات ـ لاستغنائها عن الحكومات ـ قد أخذت استقلالها، فلا تتدخَّل الحكومات في شؤونها.

بينما الجامعات التي تموّلها الحكومات تتدخَّل في شؤونها إذا أرادت أن تتدخَّل، ولا تستطيع الجامعة أن تمنعها؛ لأنَّ كيانها متقوم بهذا المال الذي تأخذه منها.

هذا الفارق مهمّ بين الدِّراسات الحوزويِّة والدِّراسات الجامعيِّة.

نكتفي بهذا المقدار، والحمد لله ربِّ العالمين.

الفصـــل الثالث

تطوير الحوزة العلميّة

مقارنة بين الدِّراستين

جوانب تربويّة في الدِّراسة الحوزية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وآله الطَّيبين الطَّاهرين.

تناولتُ في الحديثين السَّابقين بعض الإيجابيّات في الدِّراسة الحوزويّة.

حرّية الاختيار

ومن أهمّ هذه الإيجابيّات التي قُدِّرَت للدِّراسة في الحوزات العلميّة من خلال ما كُتِبَ عنها وفيها هو عنصر الإختيار.

قلنا: في الحوزة العلميّة للطالب أن يختار الأستاذ، وأن يختار المكان، وأن يختار الزّمان. وبالمقارنة بين الحوزة والجامعة رأينا هذا اللَّون من الاختيار موجودًا في الجامعات التي تسير وفق نظام

(السّاعات المعتمدة).

هذه الإيجابية ينبغي أن يُحافَظ عليها.

أنا أركِّزُ عليها هنا حتى يُحافظ عليها، ولو قُدِّرَ أن يكون هناك تطوير في وضع الحوزات، فينبغي أن يُحافَظ على هذا الجانب لأهميته من ناحية تربويِّة.

المباحثة ودورها في تركيز الدَّرس

الإيجابية الثانية التي ينبغي أن يُحافَظ عليها، وتتفرّد بها ـ كما أشرتُ ـ الحوزات، وهي لا توجد في الجامعات أو في المؤسَّسات العلميِّة الأخرى غير الجامعية، وأقصد به ما يسمّونه في الحوزة بـ(المباحثة)، في الجامعات يُسمّونه (المذاكرة)، وهي في الواقع لا (المباحثة) تنطبق عليه ولا (المذاكرة) تنطبق عليه، ولعلّه أقرب ما ينطبق عليه من ألفاظ هو (المراجعة).

الطالب في الحوزة قبل أن يذهب إلى الدَّرس يُراجع الدَّرس ويحاول أن يفهم الدَّرس في حدود المستطاع، وبعد هذا يذهب إلى

الدَّرس ويستمع الدَّرس من الأستاذ.

وبعد الدَّرس في وقت يُجدِّده مع زميل آخر له يقرِّر كلّ منهما الدَّرس؛ ففي هذا اليوم زيدٌ يُقرِّر الدَّرس وفي اليوم الثاني عمروٌ ـ مثلاً ـ يُقرِّر الدَّرس.

وبعد أن ينتهي الطالب من الكتاب يقوم بتدريس الكتاب، وعندما يُريد أن يُدرِّس الكتاب لا بدّ أن يُراجع ويُحضِّر للتَّدريس.

هذه العملية تجعل الطالب يمرّ على الدَّرس الواحد أو الفصل الواحد أربع مرَّات على أقلّ تقدير. أربع مرات تُركِّز المفاهيم الموجودة في الدَّرس، المصطلحات، الآراء، النَّظريّات، تتركَّز في ذهن الطالب نتيجة هذا التَّكرار الذي يحصل له من مراجعة الدَّرس، هذا أيضًا جانب تربوي مهمّ وينبغي أن يُحافظ عليه.

البحث الخارج قمّة العمق الحوزوي

الإيجابيّة الثالثة هي طريقة (البحث الخارج)، ووضَّحت طريقة بحث الخارج؛ هذه الطريقة أيضًا مما تنفرد به الحوزات، ولا توجد

في الجامعات بالشَّكل الموجود في الحوزات.

قد تتميّز الدِّراسات الجامعيّة بالشموليّة والاستيعاب، لكن لا تصل من حيث العمق إلى ما تصل إليه الدِّراسة الحوزوية في ما يُعرَف بالبحث الخارج، هذا جانب تربوي مهم جدًّا ينبغي أن يُحَافظ عليه. إلى إيجابيات أخرى مَرَرنا عليها سريعًا.

الدِّراسة الحوزوية، ملاحظات للتطوير

الآن نحاول أن ننتقل إلى الملاحظات.

بطبيعة الحال الدِّراسات الحوزوية جاءت نتيجة اجتهادات للقائمين عليها في فترة تأسيسها، ومن طبيعة الإجتهاد الصواب والخطأ والكمال والنُّقصان؛ فعندما تأتي ملاحظة لا تعني عدم اهتمام القائمين على الحوزات لهذا الجانب، قد يكونون بذلوا كل ما لديهم من اهتمام في هذا الجانب، ولكن لأنَّه اجتهاد، والاجتهاد قد يُلاحَظ عليه.

الملاحظات التي تُلاحَظ:

١ ـ المادّة الدِّراسية.. عائق التّقدم

أولاً في المادّة الدِّراسية، والمادّة الدِّراسية إذا استثنينا (أصول الفقه)، فإنّ المواد الدِّراسية الأخرى سواء كان: في علوم اللغة

العربية، أو في المعارف العقليّة التي هي المنطق وعلم الكلام والفلسفة، هذه المادّة لها أكثر من مئات السنين لم يُغيَّر فيها.

الكتب الدِّراسية هي الكتب الدِّراسية، والمادّة الموجودة فيها هي المادّة الموجودة. مع أنَّ العلم في تطوُّر مستمر، تموت نظريّات و تستجد نظريّات، تَفنى مفاهيم وتأتي مفاهيم أخرى.

الدِّراسات اللّغوية والنّفسية خطوة لتطوير (مباحث الألفاظ) في علم الأصول

والمفروض في طالب العلم أن يُماشي التَّطور فيطَّلع على ما يَستجد من نظريّات ترتبط بموضوع دَرسه، ففي العلوم العربية ـ أُعطي مثالاً ـ يُدرَس النحو، وما يُعرف في الدِّراسات النحوية بـ(النحو الخاص)، ولا يُدرَس (النحو العام).

مع أنّه من خلال تجربتي وتجارب الآخرين الذين اطَّلعوا على (النحو العام)، فهو أكثر فائدة للطالب الحوزوي؛ لأنَّه يُساعد في فَهم (الظَّواهر اللغوية) فيما يُعرَف بـ(مباحث الألفاظ) في أصول الفقه، وقد يساعد إلى حدّ ما في فهم (الظواهر الإجتماعية) فيما

يعرف بـ(الأصول العملية) في علم أصول الفقه.

طبعًا، في علوم اللغة هناك (علم اللغة العام)، وهو يلتقي مع مباحث الألفاظ في أصول الفقه ربما إلى حد ثمانين بالمئة؛ يعني عامَّة النظريات الموجودة في مباحث الألفاظ تُبحَث في علم اللغة، وعلم اللغة علمٌ حديثٌ استفاد من الفلسفات القديمة كالفلسفة الإغريقيّة اليونانيّة والفلسفة الهنديّة، وكذلك الفلسفات الغربية الأخرى التي استفادت من الفلسفة اليونانية والفلسفة الهنديّة، واستفاد أيضًا من الفلسفات الحديثة، وكذلك استفاد من الدِّراسات الحديثة في علم الإجتماع، وفي علم النّفس، وفي علوم أخرى كثيرة.

فعلم اللغة مجموعة علوم تساعد على فهم (الظواهر اللغويّة) التي يُدرَس أكثرها في مباحث الألفاظ في أصول الفقه.

وأنا أتذكَّر أنّي كتبت موضوعًا في تأبين السَّيد الخوئي (قُدِّس

سرّه)[(١)]، وقارنت بين رأي **السَّيد الخوئي** (ت 1413هـ) والعالم اللغوي (**أوتو جسبرسن**) (ت 1943م)، وذكرتُ آراء الأصوليّين من الإماميّين، وآراء علماء اللغة، وكان هناك تلاقح قوي، وتفاعل قوي بين المجالين، وممكن للطالب أن يستفيد منها.

مثال آخر أعطيه: في (حلقات) السَّيد الصَّدر[(٢)] غير قليل من الآراء الموجودة في مباحث الألفاظ استفادَها **السَّيد الصَّدر** (ت 1400هـ) (قُدِّس سرّه) من علم النّفس، وبخاصّة علم النَّفس السّلوكي، تجد مفاهيم علم النفس وعلم النفس السلوكي بالذات قد تبنّاها السَّيد، واستطاع أن يبلورها بشكل علمي، يلتقي ولغة

(١) لاحظ: الفقيه السَّيد أبو القاسم الخوئي: رأيه في نشأة اللغة بين الأصوليين واللّغويين، هكذا قرأتهم: شخصيات علميّة وأدبية راحلة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الهجري، ج٢: ٢٢٧.

(٢) كما يسمّيها الطلاب، وهو (دروس في علم الأصول)، ولكن ولأنَّه مكتوب الحلقة الأولى، الحلقة الثانية، الحلقة الثالثة يسمونها هكذا. (المحاضِر)

علم أصول الفقه ومفاهيم علم أصول الفقه.

علم الاجتماع، مساهمةٌ في فهم جذور المسائل الأصولية

في أصول الفقه أيضًا، لعلّه اتَّضح أنّه لا بدّ أن يكون هناك شيء من التلاقح بينه وبين علم اللغة، بينه وبين علم النحو العام.

وأيضًا بينه وبين علم الاجتماع؛ لأنَّه يَدرس (ظاهرة اجتماعية): الإستصحاب ظاهرة اجتماعية، البراءة ظاهرة اجتماعية، الاحتياط ظاهرة اجتماعية، التخيير كلّها ظواهر اجتماعية، وعندما يقال دليلها العقل بالإضافة إلى الدَّليل النقلي، والمقصود من العقل هو (سيرة العقلاء).

سيرة العقلاء يعني الواقع الاجتماعي للناس المرتبط بالمجتمع؛ فنحن بحاجة إلى أن ندرس علم الاجتماع حتى نفهم كيف تنشأ الظاهرة، وكيف تؤثِّر الظاهرة الاجتماعية بالظواهر الأخرى الموجودة في الحياة سواء كانت تلك الظواهر فكرية أو غير فكرية.

ما مدى استفادتنا من هذه الظواهر الإجتماعية؟ كل هذا يتناوله

علم الاجتماع ويمكن أن نستفيد من هذا الجانب.

فمن الملاحظات التي تُلاحظ أنّ هناك شي غير قليل من الجمود على المواد الموروثة، والمفروض أن يكون هناك انفتاح، وأن نستفيد من العلوم الحديثة في هذا المجال.

بعد أن لاحظنا على الموادّ، تأتي الملاحظات على نفس الكتب المقَّررة.

حصل تطوير إلى حدّ ما في الكتب المقَّررة في أصول الفقه، وإن كان يحتاج إلى أكثر من هذا.

العلوم العقلية.. الموازاة بين القديم والحديث

في المنطق استجدّت أنواع جديدة من المنطق، ولها علاقة كبيرة في مجال الاستدلال، وفي مجال التعريف، وفي مجال مناهج البحث في الموضوعات التي يدرسها عادة علم المنطق، المفروض هذه يُطَّلع عليها من قبل الطالب الحوزوي.

في الفلسفة، الفلسفة الحديثة تحمل من النظريات أكثر بكثير مما

تحمل الفلسفة القديمة، فالفلسفة الحديثة أكثر تفاعلاً مع الحياة، وأكثر قربًا إلى واقع الحياة من الفلسفة القديمة.

والفلسفة الإسلامية التي تُدرَس عادة في الحوزات خاصة (الحكمة الإلهية) متأثرة إلى حدٍّ كبيرٍ بالفلسفة اليونانية، هناك تطوير لها وتغيير وإضافات كثيرة لكنها متأثرة؛ فإذن لها علاقة بالفلسفات الأخرى، وكما استفادت من القديم، فالمفروض أن تَستفيد من الحديث أيضًا.

المنهج العلمي الحديث وموقعه في بناء العقيدة

في العقيدة بشكل عام، والمعروف أنّ العقيدة عندنا نحن الشِّيعة بالذَّات لا بدّ أن تكون عقليّةً؛ يعني دليلها العقل، وما ورد من نقل يأتي مؤيِّدًا. هذا في مجال الإعتقاد.

أمَّا في مجال الدَّرس؛ فمن المفترض أن لا يأتي هذا، فينبغي أن نستفيد من العقليّات في العقيدة، ونستفيد أيضًا من النَّقليّات، وعندنا أقوى مثال هو (**كتاب التوحيد**) **للشيخ الصدوق** (ت

1381هـ)، كتاب حافل جدًّا في هذا المجال.

أيضًا ينبغي أن نستفيد من العلم الحديث، و**السَّيد الصَّدر** (رحمه الله) فتح هذا الباب في كتابه (**الأسس المنطقية للاستقراء**)، ما كان هناك من يستطيع أن يستدلّ بالعلم الحديث، بنظريات ومفاهيم العلم الحديث على ما وراء الطبيعة، يعني على وجود الله تعالى.

لماذا؟ لأنَّ العلم الحديث لا يخرج في كل مفاهيمه، ونظريّاته وأعرافه، ومصطلحاته، ولغته عن المادّة، فهو يتحرّك في إطار المادة، وليس له نظرة إلى الميتافيزيقيا أو ماوراء الطبيعة، ولكن **السَّيد الصَّدر** (رحمه الله) استطاع بكتابه هذا أن يُخضع العلم ليأتي دليلاً على التوحيد.

وهو أوَّل ـ وعندما أقول هذا أقوله من باب الاعتراف ـ من استطاع أن يصل إلى هذا الذي أشرت إليه، ليس عند المسلمين، إنّما بشكل أوسع من هذا، وكتابه في هذا المجال من الكتب المهمة جدًا.

فالمفروض للطالب أن لا يقتصر في دراسة العقيدة على مجال العقليّات.

وأيضًا حتى العقليات، هي العقليات من النَّمط القديم؛ فيحتاج أيضًا إلى شيء من التَّطوير في هذا.

من الفقه التأريخي إلى الفقه الحياتي

في الفقه، عندنا الآن البنوك، والبنك مؤسَّسة عالميِّة. ولا يوجد نقد سواء كان إسلاميًّا (كالرِّيال والتُّومان والدِّينار والدِّرهم) أو غير إسلامي لا يمرّ على البنك، وأتحدَّى أيَّ واحد يأتني بريال أو تومان لم يمرّ على بنك من البنوك، فنحن بحاجة إلى أن تُدرَس البنوك.

وكذلك تُدرَس الشَّركات، فالشَّركات الآن تختلف تمام الاختلاف عن الشَّركات قديمًا التي تُدرَس في كتب الفقه.

كذلك المؤسسات الاقتصاديِّة الأخرى على اختلافها، المفروض أن تدخل ضمن الدِّراسة الحوزوية، وينبغي على الطالب أن لا يصرف وقتًا طويلاً في موضوع أصبح من موضوعات التأريخ، كان قبل خمسمئة سنة موجودًا وانتهى، والآن لا أكون بحاجة إلى

دراسته، إلا إذا كنت أريد أن أدرس تاريخ ذلك العلم، وأنا لا أريد أن أدرس تاريخ ذلك العلم، وإنَّما أريد أن أدرس العلم.

لماذا لا يحدث كل هذا التطوير في الفقه؟

قد يرجع إلى شيء، ولا أريد أن أستعرض كل الأسباب.

ما هو الفقه؟

المفروض في الطالب قبل أن يَدرس أيّ علم من العلوم يحاول أن يفهم معنى ذلك العلم، ومدى ارتباط ذلك العلم بالحياة.

الفقه عندنا نحن المسلمين هو: نظام الحياة. ينظّم كلّ ما في هذه الحياة، فأنت إذا لم تجد مسألة في الرِّسالة العمليِّة، رأسًا تستفتي، سواء في القضايا التي ترتبط بالبنوك، بالشَّركات، بالنوم، بركوب السيارة، كلّ الأشياء تستفتي فيها.

الفقه نظام شامل، وكما يعبَّر في القانون ينظِّم العلاقات.

في العبادات، ينظِّم العلاقة بينك وبين الله.

في المعاملات، ينظِّم العلاقة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان وما يتفاعل معه في هذه الحياة.

إذا فهمنا الفقه على هذا المستوى نفهم ضرورة دراسة المؤسسات الإقتصادية أمثال: البنوك والشَّركات، فهي تدخل ضمن الدِّراسة، وينبغي أن تُدرَس كما يُدرَس كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وكتاب الشُّفعة وكتاب اللَّقطة وكتاب المضاربة.

عندنا موضوع (الصَّرف)، من هنا يكون منطلقنا إلى دراسة البنوك، وهي المصارف.

وعندنا موضوع اسمه (الشِركة)، من هنا ننطلق إلى دراسة الشَّركات؛ حتى يصبح رجل الدِّين بمستوى رسالته، ورسالته للحياة عامّة والمفروض يكون بمستوى رسالته.

٢ـ مدخليّة الزمن المفتوح في ضعف أداء الرّسالة

الزمن المفتوح من الملاحظات التي تؤخذ على الحوزة؛ العالِم يدخل الحوزة وقد يبقى إلى أن يموت.

الطالب الذي يَدرس في الحوزة، من المفترض أن يتخرَّج من الحوزة: إمّا مدرِّس في الحوزة ويبقى في الحوزة إلى أن يموت، أو

يأتي إلى بلاده أو بلاد أخرى؛ ليقوم برسالته.

ولا بدّ أن يُحدَّد الزَّمن بالنسبة إلى الطالب، فقد يبقى فيها خمسين سنة يَدرس وهو ضعيف، وقد يبقى الشخص عشر سنوات ثم يجتهد.

إذن، لا بدّ من التحديد للاستفادة من الزَّمن من هذه الناحية.

٣. مناهج البحث؛ ضرورة علميّة معاصرة

أيضًا، الطالب لمّا يأتي إلى البحث الخارج ـ والآن الوضع اختلف عن السابق تمامًا ـ يحتاج إلى أن يكون قد درس (مناهج البحث) ليستطيع أن يكتب أبحاثه، ونحن الآن بحاجة إلى كتّاب كبار؛ توجد إحصائية موجودة: من انبثاق الثورة الإسلامية في إيران إلى عشر سنوات، صَدَرَ أكثر من مئتي كتاب تُهاجم الشِّيعة، وبعض الكتب تكفِّرهم.

أنا لا أقول يُردّ عليها، ولكن يحتاج إلى أن يوضَّح هذا المذهب أمام الناس، مذهب أهل البيت المفروض أن يُوضّح ويُفهم أمام

الناس.

مَن يكتب في هذا؟ هو الشخص الذي درس هذا المذهب وهم خرّيجو الحوزات، فمن المفترض أن تدخل مادّة، نسمّيها مادّة مناهج البحث، أصول البحث، قواعد البحث، المفروض أن تُدرس هذه المادّة.

الآن لا توجد جامعة في العالَم، ولا توجد كليّة مستقلّة، ولا يوجد معهد، إلا ويُدرَس فيه مناهج البحث، سواء مناهج البحث العامّة، أو مناهج البحث الخاصّة التي ترتبط بتخصُّصه، يعني المؤسّسات الأكاديميّة بالآلاف، وفي كل هذه تُدرَّس، وأصبحت هذه المادّة ضرورية.

بالمناسبة أذكر شيئًا من باب الاعتراف؛ عندما جاء المدّ الشيوعي للعراق، ونزلت كتب الشيوعيين تباع على الأرصفة، وبالمئات وبأسعار زهيدة جدًا؛ يعني الكتاب الذي يمكن أن يُباع مثلاً بخمسين ريال كان يباع بريالين من أجل نشرها، وانشرت. والشيوعية فيها مفاهيم تخالف الدِّين بشكل واضح.

ما كان يوجد عندنا العدد الكافي من الكتَّاب لتناول هذه المفاهيم الشيوعيّة ونقدها والرَّد عليها.

الشَّيخ محمَّد أمين زين الدِّين (حفظه الله)[١] وهو من مراجع التَّقليد الآن في النجف، ومن الكتَّاب المسلمين اللامعين، أخذته الغَيرة وكان يدرّس السُّطوح (**المكاسب والرَّسائل**)، والمفروض أن لا ينزل إلى هذا المستوى، ولكن جمع خمسة عشر من الطلاب[٢]، وكنتُ أنا من بينهم يُعلّمنا كيفيَّة الكتابة، كيف نكتب؟ هناك في غرفته في المدرسة، ثمّ انتقلنا إلى مقبرة سلامة القريبة من مدرسة السَّيد البروجردي وقريب من الصحن الشريف، وهذا يجعله ـ

(١) توفي في سنة ١٤١٩هـ.

(٢) للشيخ (رحمه الله) دراسة بعنوان: الفقيه الشَّيخ محمَّد أمين زين الدين (ت ١٤١٩هـ): فقيه الأدباء وأديب الفقهاء. ذكر فيها من هؤلاء المجموعة: الشَّيخ عبد الهادي الفضلي، الشهيد الشَّيخ مهدي السماوي (ت ١٣٨٩هـ)، الشهيد السَّيد مهدي الحكيم (ت ١٤٠٨هـ)، الشَّيخ محمَّد حيدر، الشهيد السَّيد محمَّد باقر الحكيم (ت ١٤٢٤هـ). لاحظ: هكذا قرأتهم: شخصيات علمية وأدبية راحلة من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر، ١: ٣٢٧.

حقيقة ـ موضع انتقاد من قبل الحوزيين؛ لأنَّ هذا لا يناسب المقامات العالية بأن تأتي وتنزل وتعلّم، لكن كان يراه واجبًا، وفعلاً خرَّج من تحت درسه كتّابًا، وأصبح لديهم مؤلفات كثيرة، يباحثون ويحاضرون.

فهذه أيضًا من الأشياء الضروريّة التي ينبغي أن تكون في الحوزة.

٤. الخطابة، ضرورة تبليغيِّة

القدرة على الخطابة، يحتاج الطالب إلى أن يقف ويرتجل، يحتاج إلى أن يقف ويحاضر، المفروض أن يعوَّد الطالب الدِّيني يُعوّد على هذا.

سأشير إلى أشياء أخرى، وربّما أتناول ما وعدت وهو نقد **الدكتور الجمالي** (ت 1997م).

٥. الموسوعات المَعلم الحضاري البارز

من المعالم الحضارية في العالَم كلِّه أن تكون هناك موسوعات

فقهيّة أو موسوعات قانونيّة؛ مثلاً: الفقه الروماني من الفقه المعدود عالميًّا، وأوّل ما وُجِد بقي منزويًا في زاوية من زوايا الدنيا، ومرت عليه عشرات السنين وربما مئات السنين، وبعد هذا دُوِّن بشكل موسوعة، وانتشر الفقه الروماني ـ الآن ـ، وكل القوانين في العالَم بما فيها القوانين العربية في البلاد العربية كمصر والكويت والعراق، فمصر عندهم الدّستور المصري في عدّة مجلدات، وكذلك الكويت عندهم الدّستور الكويتي عدّة مجلدات، والعراق لديهم ربما ستة وثلاثين أو قريب من هذا، ومن أهمّ مصادرها موسوعة الفقه الروماني.

ولأجل أن يُثبت الفقه وجوده عالميًّا يجب أن تكون له مدوَّنة وموسوعة. من هذا عندنا الآن (**موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي**)، وهي مكتوبة على المذاهب الثمانية: المذاهب الأربعة المعروفة والمذهب الإمامي والمذهب الزَّيدي والمذهب الظَّاهري والمذهب الإباضي.

وعندنا (**الموسوعة الفقهيّة الكويتية**) صدر منها حتى الآن أظن

ثلاثين مجلّدًا، وهذه على المذاهب الأربعة فقط.

مرَّ علينا زمان طويل في النجف ما كان عندنا موسوعة، والآن صار توجّه في إيران؛ فهناك مؤسسة موجودة باسم **(دائرة معارف فقه أهل البيت)**[١] عملوا **(معجم فقه الجواهر)**، والجواهر أهمّ كتاب فقهي عند الشِّيعة، وربما عند المسلمين في الواقع، عُمل له معجم والآن المعجم في طور الطبع في بيروت، وبدأوا الدائرة كموسوعة حتى تعطي الجانب الحضاري، وليدخل فقه أهل البيت كمصدر من مصادر القوانين والدَّساتير في العالم، وهذه خطوة مباركة، ويُشكرون عليها.

(المعجم الفقهي) أيضًا انتهوا منه في إيران، وأشرت إليه أكثر من مرّة.

---

(١) المقصود منها (دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقًا لمذهب أهل البيت (عليهم السلام))، تأسست بأمر من الإمام السَّيد علي الخامنئي (حفظه الله) وبإشراف المرجع السَّيد محمود الهاشمي في عام ١٩٩٠م.

٦. نحو الفقه المقاصدي

هناك شيء أحبّ أن أشير إليه: هناك شيء يسمّى (مقاصد الشَّريعة)، فكلّ ما يُكتَب في الفقه لا يخرج عن هذه المقاصد، ومن المفروض أن يُتحرك داخل دائرة هذه المقاصد.

كتب أهل السُّنة في هذه المقاصد، وأهمّ كتاب عندهم **(الموافقات) للشاطبي** (ت ٧٩٠هـ)، وهو من ناحية علميّة كتاب قيِّم جدًا، تناول هذه المقاصد وهي خمسة، وتحدّث عنها بشكل مفصّل.

وهذه المقاصد هي: حفظ الدِّين، وحفظ النَّفس، وحفظ النَّسل، وحفظ المال، وحفظ العقل.

المفروض أنَّ كل الأحكام الشرعية تهدف إلى الحفاظ على هذه المقاصد الخمسة.

هناك أستاذ جامعي سوداني توفي قبل سنين قليلة كتب أطروحة الدكتوراه في الموضوع. وكُتب أيضًا في الموضوع من قِبل علماء أهل السُّنة كثيراً، ولكن الشِّيعة لم يكتبوا في هذا، وهو من الأمور المهمّة؛

لأنَّه يمثِّل في الرَّأي القانوني: النظرية الفقهية.

فكلّ علم لا بدّ أن تكون له نظرية تُعتبر الأساس الذي ينطلق منه ذلك العلم.

الشهيد الأول (ت 786هـ)[١] في أوّل كتاب **(القواعد والفوائد)**[٢] ألمح إلى هذه المقاصد وذكرها وأشار إليها، وإلى أنَّ المفروض أن تُراعى هذه المقاصد أثناء استنباط الحكم أو الإفتاء أو ما شاكل.

هذا ما أحببت أن أشير إليه.

هذه أهمّ الملاحظات التي أردتُ أن أقولها، وأنتقل الآن ـ حتى لا أُخلف وعدي ـ إلى **الدكتور جمالي**.

---

(١) هناك خلاف هل المحقق الحلّي (ت 676هـ) هو أعظم فقهاء الشِّيعه، أو الشهيد الأوّل، بعضهم يذهب إلى أنّ الشهيد الأوّل هو أعظم فقهاء الشِّيعة، وآخرون يذهبون إلى أنَّ المحقق الحلّي هو أعظم فقهاء الشِّيعة. على أيّ حال هو أو ذاك كل منهما فقيه. (المحاضِر)

(٢) لاحظ: الشهيد الأوّل، القواعد والفوائد، موسوعة الشهيد الأوّل ١٥: ٩.

مع ملاحظات الدكتور الجمالي

لنرى الآن ملاحظات **الدكتور الجمالي** (ت 1997م) حول الحوزة العلميّة في النجف.

قلت إنَّه جاء إلى النجف، وأنا رأيته، فحضر أكثر من ليلة بحث **السَّيد الخوئي** (ت 1413هـ)، وأكثر من يوم حضر بحث **السَّيد الحكيم** (ت 1390هـ)، وحضر أيضًا بحث **السَّيد الميرزا عبد الهادي الشيرازي** (ت 1382هـ).

وحضر أبحاث صغيرة لآخرين، كبعض الدِّراسات في الجامع الهندي، وبعض المدارس الأخرى التي زارها: مدرسة السَّيد البروجردي ومدرسة الآخوند الكبرى.

كان له ملاحظات سجَّلها أيضًا في كتابه:

١. استقلاليّة التّمويل

من المزايا التي يذكرها في ملاحظاته ـ وأشرت إلى هذا ـ أنَّ الدِّراسة في الحوزة لا تخضع لسلطة الحكومة، فالحكومة لا تموّل الدِّراسة، وما دامت لا تموّلها فهي لا تخضع لها فلا تستطيع أن تتدخّل في شؤونها وتُسيِّرُها كما تريد.

٢. قناعة وزهد طالب الحوزة

أيضًا من الأمور التي يعتبرها من مزايا: القناعة والزهد لطالب العلم، فهم يأتون فقراء فيقنع بغرفة صغيرة وفراش بسيط لا يوجد فيها سرير ولا مخزن، لا شيء فيها، فراشه عادي وملابسه عاديّة وأكله عادي قانع، لا يسأم، ولا يضجر، ولا يرى أن الله لم يعطه، بل على العكس يحمد الله أنّه أعطاه هذا الشيء، هذه ظاهرة موجودة، وهذا هو السائد.

فظاهرة الزهد والقناعة تساعد على الدِّراسة، وإذا كان هناك طمع قد يصل إلى مرحلة الجشع عند الطالب سيؤثِّر على دراسته.

فالقناعة والزهد تساعدان؛ ولهذا اعتبرهما مميِّزان، و(العلم في

الجوع)، هذه العبارة المعروفة المشهورة.

٣. الحرّية وفتح باب النّقاش

النّقاش ـ في الحقيقة ـ مما يتميّز به الشِّيعة، مثلاً: تدخل في سوق المكتبات في النجف فترى الكتب التي تتهجّم على الشِّيعة، وترى الكتب التي فيها إلحاد تباع هناك، تطرح فكرة تحتوي على إلحاد لا يقولون لك: لا. إنّما يناقشونك وتناقشهم، ولا يكفّرونك، ولا يقام عليك الحدّ، باب النقاش مفتوح، وحرّية تامّة.

هذه تساعد كثيرًا على توسعة أفق التفكير عند الإنسان، تدع ذهنك يتفتح إلى ما هو أبعد مما لديه، ليستفيد من معلومات الآخرين، والآخرون يستفيدون من معلوماته، هذا نوع من الحرّية في البحث وفي النقاش، خاصة في مجال العقيدة.

وهذا ربما عند الاخرين يكون محرَّمًا خصوصًا في مجال العقيدة.

٤. فقدان التَّقييم العلمي

التقييم العلمي وهذا مهم؛ لأنَّه يترتب عليه آثار شرعيّة، ربما الطالب الجامعي يتخرَّج ويعمل، والشخص يأتيك من الحوزة العلميّة، وتتصوّر إذا لم يكن مجتهدًا فهو قريب من مرحلة الإجتهاد، ورأسًا يُحترم ويُقدَّر على أنّه ذو منزلة عالية، ولّما تأتي تُقيّمه علميًّا لا تجده يستحقّ كل هذا التقدير.

فقدان التَّقييم العلمي مضرّ جدًّا، والمفروض أنَّ الحوزات تضع معايير لتقييم المستوى العلمي للطالب، ويخرج والناس يعرفون أنَّه بهذا المستوى، والآن الملاحَظ أنَّ الزَّي هو الذي يعطي المستوى العلمي، فقط يلبس لباس أهل العلم، فهي تمثِّل شهادة الاجتهاد أو شهادة الزّهد أو..

هذه من المفارقات المهمّة التي تؤخذ على الحوزات؛ عدم وجود معايير لتقدير مستوى الطالب من ناحية علميّة، هذا الشيء أساسي ولا بدّ منه.

الآن، يدرس ويقول ذهبتُ إلى النجف، ذهبتُ إلى قمّ، يظل

خمس سنوات، ست سنوات، عشر سنوات ثمّ يأتي. مَن الّذي يُقيّمه؟ طبعًا طرق التقييم كثيرة ونحن لا نتدخّل بها.

هذه ملاحظة مهمّة و**الدكتور الجمالي** ركّز عليها جدًّا، واعتبرها أهمّ نقطة من هذه الناحية، وفعلاً هي أهمّ نقطة من هذه الناحية.

أمّا قبول الطالب بدون شهادة ثانوية فهذا أمر آخر.

المهمّ التقييم للمستوى العلمي، وتقدير المستوى العلمي، حتى لا نقع فيما وقعنا فيه من أخطاء؛ فبعض الناس يدرسون وفي مستوى مبتدئ يدرس كتاب (قطر الندى) في النحو، ويدرس كتاب (شرائع الإسلام) ثمّ يأتي، بعض الناس يسأله مسألة شرعية قد تكون أنت أفهم منه في المسألة الشرعية. إذا كان عندك أستاذ جامعة وعندك طالب ابتدائي، هل تسأل أستاذ الجامعة أو الطالب الإبتدائي؟ طبعًا تسأل أستاذ الجامعة. كيف تسأل الطالب الإبتدائي وهو في مستوى مبتدئ؟

المفروض لا نعوّده؛ لأنَّه لو سألناه لقال أنا وصلتُ للشيء الذي أريده، التقدير ـ والحمد لله ـ حصل! سؤال ويسألونني مثل

المجتهدين الكبار!

السبب هو أنَّه لا يوجد تقييم علمي حتى يتساءل الناس ما هو مستوى هذا؟ ويحاسبونه على مستواه، لكنه مع فقدان التقييم العلمي صار يذهب ويأتي... إلا القليل من الناس، والذين لديهم تمييز لهذه الأمور، وهذا كما قلت نعطيه جانب كبير من هذه الناحية.

٥. هندسة المدارس الحوزويّة

حول حوض الماء الموجود في وسط المدرسة، في كل مدرسة تجد فيها حوضًا من كرّ، لكن حوض الماء يأخذ له فترة يتأسّن ويتعفّن، ومنظمة الصحة العالمية لو كانت تدري لكانت هدَّمت المدارس، وليس فقط الأحواض، الدكتور الجمالي رآها وانتقدها من هذه الناحية.

من ملاحظاته أيضًا، العلوم التي تُدرس والتي أشرنا إليها، وطبعًا أشرنا إلى بعضها، وأنَّه من المفروض أن تدخل في الدِّراسات الحوزوية. وهذه في وقته لم يرَها موجودة، وحتى الآن غير موجودة.

الخاتمة

لماذا الحديث حول الحوزة العلميّة؟

هناك شخص يسأل سؤالاً: ماذا نستفيد من الحديث حول الحوزة، فهناك موضوعات أولى من هذا الموضوع والناس بحاجة إليها؟

1 ـ صحيح هناك موضوعات أولى، لكن أنا أقول: مع وجود الموضوعات التي هي أولى لا يمنع من أن نتعرّف على هذا الجانب، هذا شيء.

2 ـ الشيء الثاني، ينبغي أن يُثار موضوع الحوزة وفي كلّ مكان؛ لأجل أن نحتفظ بإيجابيّاتها المهمة والتي هي في الواقع مفخرة لنا ونعتزّ بها، ونقضي على سلبيّاتها التي ولَّدت الكثير...

فنحن بحاجة إلى إثارتها، ولم يكن أمرًا تَرَفيًّا كما قد يتصوّر

السائل، وإنَّما هناك حاجة إلى الإثارة من هذه الناحية.

موقع حوزة النجف من بين المراكز العلميّة الأخرى

يقول الشاعر **أحمد الصَّافي النجفي** (ت 1977م) عن النجف وارداتها وصادراتها:

وارداتُ بلدتي وصادراتُ بلدتي
جنائزٌ عمائمُ

النجف تستقبل الجنائز، لا يوجد مقبرة أوسع من مقبرة (دار السلام)، هي أوسع مقبرة في العالم، ملايين من القبور موجودة هناك. وليس لديها لا صناعات، ولا زراعة، ولا أيّ شيء.

صادراتها طلبة نشرتهم في مختلف أنحاء العالم، من مجتهدين وعلماء كبار، كما تحدّثتُ في البداية في هذا الجانب.

ربما تكون النجف ـ في الحقيقة ـ أعطت في هذا الجانب من العلماء الذين خرّجتهم مالم تعطه حوزة أخرى، لا الأزهر ـ وأنا قرأت عن الأزهر كثيرًا ـ ولا القرويين في المغرب، ولا الزَّيتونة في

تونس، ولا أذكر أماكن أخرى قد تكون فيها شيء من الحساسية.

النجف أعطت ما لم تعطه حوزة أخرى من حيث عدد العلماء الذين خرّجتهم في مختلف التَّخصّصات الشرعية الدِّينية، ومن حيث الكتب التي أُلِّفت وانتشرت.

والحمد لله حتى مع ضعف النجف الآن لم نخسر شيئًا، فحوزة قم موجودة وهي تقوم الآن بنفس الدَّور؛ تُخرِّج علماء لهم وزنهم واعتبارهم، وإحياء التراث عندهم شيء كبير، والتَّأليف أيضًا موجود، منها الموسوعة التي أشرنا إليها، وغيرها.

فعندما نُبدي هذه الملاحظات فلا نريد أن نقلّل من أهمّية الحوزات، تبقى الحوزات ذات أهميّة، ومتميّزة في جوانب تعليميّة وتربوية مهمة جدًا؛ وإنّما نريد أن نُضيف إلى الخير خيرًا.

فعندما نتحدَّث عن الحوزات ونقارن بينها وبين الجامعات ونُبدي بعض الملاحظات، نريد أن نضيف إلى الخير خيرًا، ونُريد أن نزيد في الضوء وفي النور.

وأنا واثق أنَّ التَّحرك الموجود الآن، والخطوات المباركة

الموجودة الآن، خاصّة في حوزة قم، ستؤتي الثمار التي يرجوها العالَم الإسلامي وينتظرها.

والحمد لله ربِّ العالمين.

الفصـــــل الرابع

الشَّهيد الصَّدر وأساليب التّغيير في المجتمع

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد، وآله الطَّيبين الطَّاهرين.

وجهة نظر الغربيين في السَّيد الصَّدر

يُعتدّ سماحة الإمام الشَّهيد **السَّيد الصَّدر** (ت ١٤٠٠هـ) من أبطال التأريخ؛ ونعني بأبطال التأريخ أولئك الذين نتطبق عليهم (نظرية البطل) التي نادى بها (**توماس كارليل**)[1] الإنجليزي، و(**سبينهوك**)، والتي تقول: بأنَّ البطل يَخلق الأمّة.

هناك رأيان في التَّغيير الذي يحدث للأمة، هل الأمة هي تَخلق البطل، ثم يقوم هو بالتغيير؟

(١) لاحظ كتابه: الأبطال، ترجمة: محمَّد السباعي، الطبعة الثالثة، ١٣٤٩هـ-١٩٣٠م، المطبعة المصرية بالأزهر.

أو أنَّ البطل تتكوَّن شخصيته بسبب عوامل أخرى، ثم يقوم بدور تغيير واقع الأمة إلى ما هو أفضل؟

الجانب الثاني هو الذي ينطبق على حياة السَّيد الصَّدر (قدس سرّه)، وأنا شخصيًّا لمست هذا عندما اشتركت في العام الماضي، في المؤتمر العالمي الذي أُقيم في جامعة (لندن)، لدراسة فكر السَّيد الصَّدر.

نحن هنا في البلاد الشرقية تعوّدنا أن ندرس سيرة الإنسان؛ متى ولد، ومن هو أبوه، ومتى توفي، وأين درس، وكم له من كتاب، ومن هم تلاميذه، ومن هم أساتذته، هذا في الواقع لا يكشف عن شخصية الشَّخص.

في الغرب لا يهتمّون بهذه الجوانب التي ترتبط بالولادة والوفاة والأساتذة والطلاب والمؤلَّفات، يهتمّون بالجانب الفكري، وماذا أعطى من خلال مؤلّفاته؟ وهل لأفكاره التي تناولها بالدِّراسة في مؤلفاته أثر في تغيير الذِّهنية العلميّة أو أثر في تغيير الأمة؟

هذه الجوانب ـ عادة ـ هي التي تُدَرس.

المؤتمر في (لندن) عُقد وشارك فيه أساتذة كبار، وأكثرهم من الإنجليز، والذين شاركوا من العرب، أنا وشخص آخر فقط، أمَّا الباقون كلّهم من الإنجليز، من جامعة (أكسفورد)، ومن جامعة (ويلز)، ومن جامعة (لندن)، ومن جامعة (مانشستر)، ومن جامعات أخرى لا تحضرني أسماؤها.

قدَّموا أبحاثًا ودراسات وافية، وكلّ واحد تناول جانبًا من جوانب فكر السَّيد الصَّدر، ودَرَسَه دراسة وافية، قد تكون بعض الأبحاث ثلاثين صفحة، أو أربعين صفحة.

والواقع أنَّهم كانوا معجبين بشخصية السَّيد الصَّدر، وكيف انوجد هذا في بيئة شرقيَّة. لمسوا من خلال فكره أنَّه كان يتطلَّع إلى مستقبل أفضل لهذه الأمة، وكذلك لمسوا من خلال فكره أنَّه حاول أن يُعدّ العُدّة الكافية للتغيير؛ لتغيير واقع هذه الأمة إلى هو أفضل.

هذا بيان لوجهة نظر الغربيين في السَّيد الصَّدر.

وأشير إلى أنَّ كتاب (**فلسفتنا**) تُرجم للغة الإنجليزية، وكتاب (**اقتصادنا**) أيضًا تُرجم للغة الإنجليزية، و(**المدرسة**

الإسلاميّة) تُرجم للغة الإنجليزية، وكُتبت أُطروحة دكتوراه عن **السَّيد الصَّدر** في جامعة (لندن) في كلية الدِّراسات الإفريقيَّة والشَّرقية التي تختصر بعبارة (سَوَسْ)، وانتشرت هذه الأُطروحة في الجامعات الغربيَّة.

هناك يقرأون، نحن قد يأتي الكتاب إلينا عن طريق الشِّراء، أو عن طريق الهديَّة، وفي الغالب لا نقرأ من الكتاب إلا العنوان، وعندما يقرأون يقرأون قراءة متأنّية، فيها تحليل وفيها نقد.

أُطروحة الدكتوراه عن **السَّيد الصَّدر** انتشرت في الجامعات الأوربية والإمريكية، وأخذوا فكرةً عن **السَّيد الصَّدر**، ومن خلال قرآءاتهم أيضًا **لفلسفتنا واقتصادنا** أخذوا فكرةً أنَّه مفكِّر؛ ومن هنا أقول إنَّه (**بطل من أبطال التأريخ**)؛ لأنَّه استطاع أن يدخل التأريخ كعَلَم من أعلام المفكِّرين الإسلاميين، والذين يختلفون في جوانب عن كثير من المفكرين الإسلاميين، أو هو من أعلام المفكِّرين الإسلاميين، وهذا ما سأُشير إليه الآن في هذه المحاضرة.

الآن أُعطي صورة موجزة عن شخصية السَّيد الصَّدر، ولا أريد أن أتناول سيرته، متى ولد، ومتى توفي، هذه ممكن أن تقرأوها في أيّ كتاب، أو في أيّ مقال، أو أيّ ترجمة كُتبت عن **السَّيد الصَّدر**[١].

(١) أوسع ما كُتب حول حياة السَّيد الصَّدر والظروف التي عاشها آنذاك هو كتاب الشَّيخ أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، محمَّد باقر الصدر: السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق، في خمسة مجلَّدات.

السَّيد الصدر، ومكوّنات الشخصيّة

هنا أحاول أن أُعطي صورة عن كيف تكوّنت شخصية السَّيد الصَّدر:

الثقافة الأُسريّة مكوِّنات للشخصيّة

السَّيد الصَّدر وُلد بين أُسرتين: أُسرة آبائه وهم السَّادة **آل الصَّدر**، وأُسرة أخواله وهم المشايخ **آل ياسين**.

وعاصر من أخواله المرجع الدِّيني **الشَّيخ محمَّد رضا آل ياسين** (ت ١٣٧٠هـ) (**قدّس سره**)، وكان مقلَّدًا هنا في القطيف قبل **السَّيد الحكيم** (ت ١٣٩٠هـ).

الشَّيخ محمَّد رضا آل ياسين عُرف بنقاوة وصفاء فقاهته.

الفقيه في الحوزات يقسّمونه إلى قسمين: (فقيه صناعي) هكذا يعبّرون، و(فقيه ذوقي).

الفقيه الصناعي: هو الذي يقوم بدراسة النُّصوص الشَّرعية؛ آيات الأحكام وروايات الأحكام، وفق القواعد العلمية التي درسها في أصول الفقه.

بينما **الفقيه الذَّوقي**: يتجاوز هذه القواعد، ويدرس النَّص من خلال القواعد، ومن خلال فهمه للعرفيَّات؛ يعني النّاس أو العرب كيف يفهمون النَّص العربي؟ ومن خلال فهمه أيضًا لجوانب البيان في اللغة العربية.

الشَّيخ آل ياسين كان فقيهًا ذوقيًّا؛ كان يتذوَّق النَّص بما يمتلك من خلفيَّات ثقافية، ويستطيع أن يفهم النَّص مرتبطًا بالواقع الذي يعيشه الناس.

السَّيد الصَّدر كان ملازمًا لهذه الشَّخصية، واستفاد كثيرًا من هذا المرجع وهو **الشَّيخ محمَّد رضا آل ياسين**.

وأيضًا استفاد من خاله **الشَّيخ مرتضى آل ياسين (ت ١٣٩٨ﻫ)**، وهو الأخ الثَّاني **للشَّيخ محمَّد رضا آل ياسين**، وأيضًا قُلِّد بعد **السَّيد**

الحكيم (ت ١٣٩٠هـ) في بعض المناطق، منها عندكم في تاروت[1].

الشَّيخ مرتضى آل ياسين بالإضافة إلى كونه فقيهًا ذوقيًّا، كان أديبًا ومن ألمع أدباء العراق، وبخاصّة في جانب الكتابة.

أُسرة آل ياسين من الأُسر التي كانت تعيش في الكاظمية وبغداد.

وأسرة الصَّدر أيضًا كانت في الكاظمية وبغداد.

وعادة الذي يعيش في العاصمة غير الذي يعيش من المدن الأخرى؛ العاصمة عادة يكون فيها انفتاح أكثر من المدن الأخرى، وتتوفَّر فيها وسائل التَّثقيف والثَّقافة أكثر من المدن الأخرى، وتكون فيها عادة أهمّ الجامعات، وفيها أهمّ المكتبات، وفيها الشَّخصيات العلميّة بمختلف التَّخصصات.

في **أُسرة آل ياسين** كان **الدكتور عزّ الدِّين آل ياسين**، **والدكتور محمَّد علي آل ياسين** وقد توفيا، وكان **الدكتور جعفر آل ياسين** ولا

(١) جزيرة من مناطق مدينة القطيف.

زال موجودًا[1] وتخصّصه فلسفة إسلامية، وكان هناك دكاترة آخرون.

في **أُسرة آل صدر** كذلك كان فيها إلى جانب العلماء الحوزويين، دكاترة جامعيون، هاتان الأُسرتان جمعتا بين الثَّقافتين: الثقافة الحوزوية والثقافة الجامعية.

السَّيد الصَّدر (رحمه الله) كان يلتقي بأفراد هاتين الأُسرتين، ويستفيد من ثقافة كل واحد من أفراد هاتين الأُسرتين، الثَّقافة الحوزوية والجامعية.

الدِّراسة الحوزويّة المميَّزة مكوِّنًا أساسيًّا

إلى جانب هذا دراسته في الحوزة، وكان يختلف ـ طبعًا أنا عاصرته وتتلمذت عليه وأعرفه عن قرب تمامًا ـ كان يختلف عن كثير من الذين عاشرناهم في تلقّيه للمواد المقَّررة في الحوزة؛ كان سريع التَّلقي، مع النَّقد والتَّحليل.

(١) توفي سنة ١٤٣٠هـ.

الطلبة موجودون بكثرة في أنحاء العالَم الشِّيعي، وأنا أعتبر أكثرهم يردِّد ما هو موجود في الكتاب من دون أن يحلِّل أو يتعمَّق في فهم ما هو موجود في الكتاب، فلو حاولنا أن نناقش معه موضوع من موضوعات الكتاب المقرَّر الذي درسه قد لا يستطيع أن يخرج عن حدود ما هو موجود في الكتاب.

بينما **السَّيد الصَّدر** كان يمتلك ذهنية مميزة، يقرأ الكتاب ويحاول أن يحلِّل المادّة العلميّة الموجودة في الكتاب، وينقد المادّة العلميِّة الموجود في هذا الكتاب. هذا النَّوع من التَّعامل مع المادَّة العلميّة الموجودة في الكتاب ينمّي الذِّهنية، ويفتح آفاقًا للذِّهن على جوانب كثيرة من الحياة.

دراسته للفلسفة ـ لا أُريد أن أتناول دراسته للأصول ودراسته للفقه ـ: دَرَسَ الفلسفة في وقت كانت الفلسفة شبه محرّمة في الحوزة العلميّة في النجف؛ يعني الذي كان يَدْرس الفلسفة يُنظر له نظرة معيّنة، وكان أساتذة الفلسفة قليلين، ولا يُدرِّسون الفلسفة إلا في بيوتهم، وبشكل غير مكشوف أو بارز.

كان يسكن إلى جوار بيت السَّيد الصَّدر وأخيه السَّيد إسماعيل (ت ١٣٨٨هـ) **الملاّ صدرا البادكوبي** (ت ١٣٩٢هـ)، وهو من الفلاسفة المعدودين في النجف والمعروفين، وكان فقيرًا جدًا.

وكان **السَّيد الصَّدر** يتردَّد عليه في بيته، من دون أن يعرف أحد.

دراسة الفلسفة تحتاج إلى زمن طويل؛ الفلسفة فيها عمق خصوصًا الفلسفة الإسلامية المتأثرة بالفلسفة القديمة التي نسمّيها الفلسفة الإغريقية أو اليونانية، كان فيها عمق وتحتاج إلى ذكاء، وذكاء متميّز لأجل أن تفهم مفاهيم الفلسفة، ولكن **السَّيد الصَّدر** استطاع أن يأخذ هذه الفلسفة في زمن قياسي لم يتجاوز السَّنتين، وكتب كتابه (**فلسفتنا**) كما هو مذكور في مقدّمة الكتاب في ثمانية أشهر[١]، مع أنَّه قارن في هذا الكتاب بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة، وهو لم يكن دَرَس الفلسفة الحديثة، وإنّما جمَّع[٢]

---

(١) المذكور في المقدِّمة أنّه ((**نتيجة جهود متظافرة طيلة عشرة أشهر**))، لاحظ: فلسفتنا: ١٥.

(٢) وأقول جمَّع؛ لأنَّه كان فقيرًا، ولم يكن يستطيع أن يشتري الكتاب بثمن

كثيرًا من كتب الفلسفة، وقرأ هذه الكتب واستطاع أن يهضمها مع أنَّ الفلسفة الحديثة أيضًا تحتاج إلى دراسة وتحتاج إلى أُستاذ، لكنّه استطاع أن يهضمها ويتمثّلها.

وأنا أقول هذا ليس من عندي، وإنّما من خلال الأبحاث التي سمعتها في المؤتمر الذي عُقد في (لندن) والذي أشرت إليه في بداية المحاضرة.

فكلّ من تناول كتاب (**فلسفتنا**) أو الأفكار الفلسفية التي في كتاب (**فلسفتنا**) كانوا يعترفون بأنّ **السَّيد الصَّدر** كما هو متخصص في الفلسفة القديمة، هو أيضًا متخصص في الفلسفة الحديثة.

هذا على أيّ شيء يدلّ؟ يدلّ على عبقريَّة هذا الرجل؛ يعني فوق مستوى الذكاء. تجد في الأمّة هكذا أناس ولكن قلائل، الله سبحانه وتعالى يمنحه ذكاءًا فوق ذكاء المستوى المعروف الذي نسميه

عالٍ، وإنّما كان يستعير، كنّا نستعير له وآخرون يستعيرون وتتجمَّع لديه الكتب. (المحاضِر)

عبقرية في التّفكير.

التّثقيف الذاتّي والدّور المهم في بناء شخصيّة الصدر

كان **السَّيد الصَّدر** يقرأ كثيرًا، ويختلف عن كلّ من عرفناهم من من العلماء في حوزة النجف، باستثناء أفراد أمثال: **الشَّيخ محمَّد رضا المظفَّر** (ت ١٣٨٣هـ) و**السَّيد محمَّد تقي الحكيم** (ت ١٤٢٣هـ) وأفراد قلائل آخرين، هؤلاء كانوا يقرأون، ويقرأون بكثرة، ويقرأون قراءات متنوِّعة.

كان يقرأ المسرحيَّة، ويقرأ القصَّة، ويقرأ الرِّواية، ويقرأ النَّقد الأدبي، ويقرأ التاريخ، ويقرأ الجغرافيا، ويقرأ الفيزياء المبسَّطة، ويقرأ الكيمياء المبسطة وغيرها، ويقرأ قراءات منوَّعة، ولذا كان من المثقفين[1]، ونستطيع أيضًا أن نفهم هذا من كتبه **(فلسفتنا)**، **(اقتصادنا)** والكتب الأخرى التي ربما سأشير إليها.

هذه القراءة أعطته رصيدًا علميًا ضخمًا.

---

(١) هنا وصف لثقافة السَّيد الصَّدر ولكنّه غير واضح في التسجيل.

نحن نؤمن بأنَّ الفقه الإسلامي هو نظام الحياة، وإذا كان هو نظام الحياة فلابدّ للفقيه من أن يفهم الحياة حتى يستطيع أن يفهم هذا النِّظام من خلال فهمه للحياة، ليستطيع أن يعطي الفقه القادر للتَّطبيق في هذه الحياة.

لا يستطيع الفقيه أن يفهم هذه الحياة إلاّ إذا كان لديه رصيد ضخم من الثَّقافة المنوَّعة التي تلتقي وواقع هذه الحياة.

السَّيد الصَّدر أعدَّ نفسه بهذه الكيفيَّة، وكأنَّه يشعر أو يحسّ بأنّه سيصل للقيادة فأخذ يعدّ نفسه بهذا الإعداد.

التَّثقيف الذَّاتي كان أيضًا له دور كبير في بناء شخصية السَّيد الصَّدر الثَّقافية.

السَّيد الصَّدر وأدوات التغيير

١. التّطلّع للمستقبل:

السَّيد الصَّدر أيضًا كان من القلائل الذين كانوا يتطلَّعون للمستقبل؛ فالفقيه عندنا يدرس الفقه لأجل أن يؤلِّف الرِّسالة العمليّة ليعطيها لمقلِّديه، ولأجل أن يُفتي فيها لو سُئل سؤالاً جوابه غير موجود في الرِّسالة العمليِّة، هذا مقدار تطلّعه لمستقبل حياته.

السَّيد الصَّدر ـ ومن خلال تعاملنا معه، سواء في مجالسه أو في دروسه أو في كتاباته ـ عنده تطلّع لمستقبل أوسع من هذا، مستقبل قيادة أمة وتغيير واقع الأمة.

عندما كنّا نلتقيه في مجالسه وبخاصَّة في ليالي شهر رمضان، ما كان يضيع المجلس ـ كما يفعل كثير منّا ـ بالنُّكات أو المضحكات أو ما شاكل أو بأحاديث لا تبني شخصيتنا نحن الذين نلتقي معه، بل

كان يتحدَّث عن الأمة وتغيير الأمة، وعن الحوزة وتغيير الحوزة، وعن المستقبل الذي ينتظر المسلمين، دائماً هذه أحاديثه. طبعًا هذا اللَّون من الأحاديث تُربِّي الآخرين الذين يستمعون إليها.

كان عنده قدرة على نقل الفكرة من ذهنه وغلغلتها في أذهان الآخرين؛ عنده قدرة بالنَّبر الصوتي عندما يتكلّم، بالإشارة، بترديد الفكرة، بتغيير العبارة، كل هذه كانت أساليب ووسائل تساعده على نقل الأفكار المولودة في ذهنه إلى الآخرين؛ لتسهم هذه الأفكار في بناء شخصيَّات الآخرين الثَّقافية.

٢. اختيار رجال التَّغيير:

في طريقة إعداده للتغيير الاجتماعي كان يختار الرِّجال اختيارًا، وكان يتردد عليه كثيرون. كان أكثر شخصية علميّة عاصرتها في النجف يتردد عليها الناس من مختلف الطَّبقات الثَّقافية، حوزويون وجامعيون، هو **السَّيد الصَّدر**.

السَّيد الحكيم كان يتردَّد عليه الناس يوميًا بالمئات، ولكن

أكثرهم من الطَّبقات العامَّة، أمّا **السَّيد الصَّدر** فكان مرجع فكر، الجامعيون على اختلاف تخصصاتهم يأتون إليه؛ هذا متخصِّص في علم النفس وعنده استفسارات في الإسلام، وهذا المتخصَّص في علم الاجتماع، هذا متخصص في الفلسفة القديمة أو الحديثة، إلى آخره، كانوا يأتون إليه ويعرضون عليه مؤلَّفاتهم ويراجعها، ويطرحون عليه بعض الأسئلة ويجيب على هذه الأسئلة.

من خلال هؤلاء يختار الأشخاص الذين لديهم استعداد لتحمّل الفكر الذي كان يريد أن يطرحه، لتغيير واقع مجتمعاتنا.

فاختار كوكبة من شبَّان ذلك الوقت، أذكر منهم الذين تعرفونهم: **السَّيد محمَّد حسين فضل الله (ت ٢٠١٠م)، الشَّيخ محمَّد مهدي شمس الدِّين (ت ٢٠٠١م)، الشَّيخ محمَّد مهدي الآصفي، وآخرون؛ كالسَّيد مهدي الحكيم (ت ١٤٠٨هـ) وأخوه السَّيد محمَّد باقر الحكيم (ت ١٤٢٤هـ) والسَّيد مرتضى العسكري (ت ١٤٢٨هـ)**، وكثيرون لا تحضرني أسماؤهم في الواقع.

كان يختار هؤلاء اختيارًا، وكان يضعهم تحت الاختبار؛ أنت

عبد الهادي أو **محمَّد مهدي الآصفي** أو أنت **الشَّيخ جعفر الهلالي**، أو أنت **السَّيد مهدي الحكيم** خذ هذا العمل، وكنَّا إذا أمرنا بالشيء كنَّا نعتبره أمرًا مقدّسًا، ونقوم بالعمل.

ثم يأتي بكلّ لطف وبكلّ تأدّب وبكلّ تهذيب يناقشك، فإذا كان لديك أخطاء أو نقطة ضعف يحاول يقوّيها من دون أن يُشعرك بأنّه ينقدك أو يكشف عن ضعفك ويكشف عن نقصك، عنده أسلوب خاص في هذه الناحية.

بعد أن يُخضع هؤلاء للاختبار يعتمد عليهم في مهمّاته، وكلّها ترتبط بالتَّغيير الفكري والتَّغيير الثَّقافي.

٣. تناسب وسائل التَّغيير والواقع:

وكان أيضًا يختار وسائل التَّغيير التي تلتئم مع طبيعة مجتمع العراق آنذاك، فمثلاً:

تحدَّث مع **السَّيد الحكيم** (قدّس سرّه) في أن يعمل حوزة مطوَّرة

كانت تسمّى (الدَّورة)[1]، أدخل فيها دراسة **(فلسفتنا)** كمقرَّر و**(اقتصادنا)** كمقرَّر، وأدخل التَّفسير والحديث والعلوم التي يحتاجها المبلِّغ الإسلامي، وليُعدّ من خلال الدَّورة مبلِّغين إسلاميين يقومون بدور التَّغيير الذِّهني والثَّقافي.

أيضًا دفع خاله **الشَّيخ مرتضى آل ياسين** (رحمه الله) في أن يكلِّم **السَّيد الحكيم** في تكوين (جماعة العلماء)، وكُوّنت (جماعة العلماء) بإشراف **السَّيد الحكيم**، وكان معتمدها **الشَّيخ مرتضى آل ياسين** وأعضاء من أساتذة الحوزة الكبار اختيروا للعمل، وقامت (جماعة العلماء) بأدوارها.

في ظلّ هذه الجماعة اقترح **السَّيد الصَّدر** أن يُصدر مجلة، وتحدّث مع **السَّيد الحكيم** أيضًا، واستجاب **السَّيد الحكيم** لهذا ولتمويل المجلة كاملاً، ـ وكان التمويل مكلّفًا ـ. واختير لها هيئة تحرير هم:

(١) طبعًا كان اسمها (مدرسة العلوم الإسلامية)، ولكن تسمّى على ألسنة الناس بالدَّورة،؛ دورة لأنَّها تدرِّس سنوات محدَّدة، بينما الحوزة من المهد إلى اللَّحد، لا حدّ لها، أمّا هذه فمحدَّدة بسنوات معيّنة. (المحاضِر)

الشَّيخ محمَّد مهدي شمس الدِّين والسَّيد محمَّد حسين فضل الله والشَّيخ كاظم الحلفي والشَّيخ محمَّد رضا الجعفري (ت ١٤٣١هـ)، وأنا خامسهم.

نحن كهيئة تحرير كنَّا نتصوَّر أنَّ هذه المجلة التي اقترحها **السَّيد الصَّدر** (قدس سره) ستكون مثل بقية المجلاّت الأخرى التي كانت تصدر في العراق أو في بقية البلدان الإسلامية الأخرى؛ هذا يكتب كلمة، وهذا يكتب قصيدة، وهذا يكتب قصة، لكن **السَّيد الصَّدر**كانت نظرته أبعد من هذا بكثير جدًا.

اجتمع وقال: أريد أن تكون المجلَّة مجلَّة المفاهيم الإسلامية التي ترتبط بواقع الناس، وتقوم بدور تغيير نظرة الناس إلى الكون والحياة والمجتمع والإنسان.

كانت مهمة شاقّة في ذلك الوقت، من أين تأتي بالكتّاب الذين هم بهذا المستوى**!**؟ فكان يقترح بعض الموضوعات وتُكتب، وكان يكتب المقدّمة تحت عنوان **(رسالتنا)**، وانتشرت انتشارًا واسعًا جدًا، وجاءت الطَّلبات لهذه المجلَّة من مختلف أنحاء العالَم، من

الشِّيعة والسُّنة، فلم تقتصر على الشِّيعة، وأدّت دورًا كبيرًا في مجال تغيير ذهنيات الناس.

المفاهيم الإسلامية الآن التي تُطرح في كثير من المجلات الإسلامية في إيران أو في لبنان أو في باكستان أو في بلدان أخرى، هذه متأثّرة بفكر (الأضواء)، فكر (الأضواء) أعطى في حينها ولا يزال يعطي، وهذا دور مهمّ يسجَّل **للسَّيد الصَّدر** في مجال التَّغيير.

استطاع من خلال (الأضواء) أن يكوّن جيلاً رساليًّا يفهم الإسلام كنظام حياة[1].

---

(١) وعلى ذكر كلمة نظام، كان يقال دائماً منذ القديم إلى عصر السَّيد الصَّدر: الإسلام (عقيدة وعمل)، أصول دين وفروع دين، (أصول الدِّين) صرنا نعبّر عنها (بالعقيدة)، و(فروع الدِّين) عبّرنا عنها (عمل)، وهناك كتب موجودة حتى في عصر السَّيد الصَّدر تعبّر (عقيدة وعمل)، أوّل من عبّر ـ من الحوزويين طبعًا ـ عن الإسلام: (عقيدة ونظام) هو **السَّيد الصَّدر** هو وتلامذته. وأخذنا هذا التعبير وكانت كتابات كثيرة حول هذا الموضوع ولاقينا ما لاقينا، ولا أريد أن أدخل في تفاصيل الصِّراع الذي حدث فلا ينفعنا ذكره. (المحاضِر)

هذه النّقطة تكشف أنَّ **السَّيد الصَّدر** كان مبدعًا يُبدع الأفكار إبداعًا، ولا يقتصر على الموروث، ولا يكرِّر الموروث كما وصل إلينا.

عندكم مثلاً: الرِّسائل العلميِّة، وأنتم قلّدتكم أكثر من شخص، خذ الرسائل العلمية خمس أو ست رسائل، باستثناء رسالة السَّيد الصَّدر تجدها تتشابه، تتكرَّر العبارة، والأبواب هي الأبواب، والتَّعبير هو التعبير، لا يوجد فيها إبداع إنّما فيها إفتاء؛ المرجع وضع رأيه كمفتي، لكن لا يوجد فيها إبداع.

السَّيد الصَّدر دائمًا كان يحاول أن يُبدع الفكرة؛ بمعنى يستكشف أو يستخرج الفكر من النُّصوص، من القرآن من السُّنة من التُّراث ـ أيضًا ـ ويطرح هذا الفكر.

٣. تأليف الكُتب:

من وسائل التغيير: الكُتب التي أُلفت في ذلك الوقت؛ مجموعة من الكتب أُلِّفت وكلّها كانت بإرشاد **السَّيد الصَّدر**، سوء كانت

ضمن حلقات وسلاسل، أو كانت مستقلة، وقد لعبت دورًا في تغيير الذِّهنيات، وكلّ هذه الكُتب سواء كانت حلقة من سلسلة أو مستقلّة تنتشر بسرعة وتُطبع أكثر من مرة ؛ لأنَّ فيه تجديد، وفيها شيء جديد.

التَّغيير الإجتماعي عند السَّيد الصَّدر، والحلقات المفقودة

رأي **السَّيد الصَّدر** (رحمه الله) في التغيير الاجتماعي كان: أن يبدأ في التَّغيير الفكري؛ لأنَّك إذا أردت أن تغيّر مجتمعًا، فهذا المجتمع فيه عادات، فيه تقاليد، فيه أعراف، فيه أشياء كثيرة وفيه حضارة، هذه الحضارة قد تلتقي في بعض جوانبها مع المفاهيم الإسلاميّة، لكن في جوانبها لا تلتقي مع المفاهيم الإسلاميّة، خذ مثلاً اجتماعيًا:

في بعض الأُسر بنات هذه الأسرة لا يتزوّجن إلاّ من أبناء هذه الأُسرة ـ يعني أسرة منغلقة ـ لا تسمح بأن تخرج البنت إلى أُسرة أُخرى، وهذا لم يقرّه الشرع.

هذا من حضارتنا التي نعيشها في مجتمعاتنا، وهناك شيء كثير من هذا لعلَّ بعضه معروف عندكم.

في مجتمع الحوزة: يعتقدون أنَّ الإسلام (عقيدة وعمل)، فإذا جاء كافر يريد أن يغزوا بلاد المسلمين يجب علينا أن ندافع، أمّا أنَّ هناك عمل لأن يحكم الإسلام حياة الناس فهذا لم يكن موجودًا.

طرح **السَّيد الصَّدر** فكرة النِّظام ومن خلال هذه الفكرة انبعثت حركات إسلامية تحمل هذه الفكرة، وفعلاً انتشرت هذه الفكرة، وكانت عاملاً من العوامل التي ساعدت على الثَّورة الشَّعبية في إيران التي أطاحت بحكم الشَّاه وجاءت **بالإمام الخميني** (ت ١٤٠٩هـ) (قدّس سرّه)كقائد.

بهذه الطَّريقة حاول **السَّيد الصَّدر** أن يوجد ما نسمّيه بالحلقات المفقودة.

١ـ كانت هناك كتابات عن الفلسفة الإسلاميّة ولكن بالأسلوب القديم، ما كانت لدينا كتابات تُقارن بين الفلسفة الإسلاميّة والفلسفات الحديثة كالاشتراكية والفلسفات الأخرى، **السَّيد الصَّدر** أوجد هذه الحلقة المفقودة بكتاب (**فلسفتنا**).

٢ ـ لم تكن هناك كتابات في الاقتصاد الإسلامي، وما كان هناك

كتابات اقتصادية، حتى عند إخواننا السُّنة كتابات بسيطة جدًا، هناك (**النِّظام الاقتصادي) لتقيّ الدِّين النَّبهاني** (**ت ١٩٧٧م**) رئيس (حزب التَّحرير الإسلامي) ـ لعلكم سمعتم عنه ـ و(**العدالة الاجتماعيّة**)[1] **لسيد قطب** (**ت ١٩٦٦**) من الإخوان المسلمين، لكن هذه ما كانت بالشَّكل الذي تُعطي صورة واضحة عن الاقتصاد الإسلامي كنظام يعطي الجانب الاقتصادي في الحياة، **السَّيد الصَّدر** وضع النَّظرية الاقتصادية الإسلاميّة في (**اقتصادنا**)، وتمّت عليها التَّفريعات الأخرى.

٣ ـ (**البنك اللاّربوي**): لعلَّه[2] أقدم ما أُلِّف في هذا المجال هو كتاب السَّيد الصَّدر و(**بنوك بلا فوائد) للدكتور أحمد النجار** مصري، وأنا أحتمل احتمالاً قويًّا أنَّ كتاب السَّيد الصَّدر كان سابقًا في التَّأليف على كتاب (**بنوك بلا فوائد**) الذي أَلَّفه الدكتور **النجار**

(١) المقطع في التَّسجيل غير واضح سوى كلمة (الاجتماعية)، وبعد مراجعة مؤلَّفات سيد قطب وجدنا هذا الكتاب ولعله هو المقصود.

(٢) كان عندي تتبع لهذا. (المحاضِر)

عندما كان في جدّة، في الوقت الذي كان **السَّيد الصَّدر** يراسَل من قِبل (بنك التنمية الإسلامي) الموجود هنا في المملكة العربية السعودية، ومن قِبل (بنك التَّمويل) في الكويت، يستفسرون منه عن رأي الإسلام في إيجاد بنك غير ربوي، فكتب في هذا المجال.

هذه كانت حلقة مفقودة، لم يكن أحد من الحوزويين يكتب في هذا الجانب.

٤ ـ (**الأُسس المنطقة للاستقراء**) من كُتب السَّيد، وهذا الكتاب قمّة النّضح الفكري عند **السَّيد الصَّدر**.

كما هو معروف أنَّ الأدلة التي يستدلّ بها علماء المسلمين على على العقيدة:

إما فلسفية: مأخوذة من الفلسفات القديمة، بما فيها الفلسفة الإسلامية.

أو النّقليات: القرآن والحديث الشريف.

وأُشيع أنَّ العلم لا يُثبت وجود إله لهذا الكون.

لأوضّح هذا بمثال:

العلم عندما يُريد أن يبحث في الإنسان، يدرس عناصر تكوين هذا الجسم، ما هي العناصر المكوّنة له، فيدرسها: الجهاز العصبي، الجهاز الهضمي، الجهاز العظمي إلى آخره.

العلم يدرس: الظواهر والعناصر والوظائف.

أمَّا الفلسفة لا تدرس شيء من هذا، إنّما تدرس حقيقة الشيء، الفلسفة لا يهمّها ما هي العناصر المكوّنة: لحم، دم، عظم، ما يهمها حقيقة الإنسان ما هي؟ ولذا جاءت بهذا التَّعريف المشهور، الإنسان: حيوان ناطق. وهذه حقيقة الإنسان في رأيهم.

فالفلسفة تبحث عن حقائق الأشياء، بينما العلم يبحث في الظواهر والعناصر والوظائف.

العلم عندما يدرس الكون، فإنّه يدرس هذه الظواهر الموجودة في الكون، والعناصر التي يتألّف منها الكون، وما هي وظائف هذه العناصر؟ أمّا حقيقة هذا الكون، العلم لا يتطرّق له، طبعًا أقصد العلم الحديث.

فإذًا باختصار، العلم يدرس المادّة، وما وراء المادّة لا يتجاوز

إليه العلم.

الله سبحانه وتعالى وراء المادّة ـ ميتافيزيقيا ـ، إذا كان العلم لا يتجاوز حدود المادّة إلى ما ورائها فلا نستطيع أن نتمسَّك بالعلم لإثبات خالق لهذا الكون.

السَّيد الصدر وظّف[١] كلّ طاقات تفكيره في أن يتحدّى ويُثبت أنَّ العلم يستطيع أن يقول: إنَّ هناك إله لهذا الكون، طبعًا جمّع مصادر قديمة وحديثة وبدأ يكتب.

سمع أن (**رسل**) الفليسوف المشهور ـ توفي قبل سنوات قليلة[٢] ـ عنده رأي في هذا الموضوع، وكتابه باللغة الإنجليزية[٣] وغير مترجم.

فأذكر من الأشخاص الذين استدعاهم استداعني، وقال: هذا

(١) العبارة هنا غير واضحة في التسجيل، والمناسب من السياق هذه الكلمة.

(٢) كانت وفاته في سنة (١٩٧٠م).

(٣) الكتاب هو (المعرفة الإنسانية: مداها وحدودها). لاحظ: أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، محمَّد باقر الصدر: السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق ٢: ٥٦.

الكتاب لابدّ وأن يصلني، أو أُحدد الصفحات وتترجم هذه.

أنا سألت الدكاترة المتخصصين في هذا المجال، فقالوا: التّرجمة لابدّ أن تكون من قِبل فيلسوف؛ لأنّ هذا الكتاب فلسفي، وإذا ترجمه أديب لن يفهمه، وهؤلاء الفلاسفة الذين يترجمون ـ ذكر منهم شخص في مصر لن أذكر اسمه توفي ـ يأخذون مبلغ محترمًا، و**السَّيد الصَّدر** من أين يأتي بهذا المبلغ المحترم؟ لأنه كان فقيرًا.

ثم اتَّصل مع شخص ليترجمه له[1].

عمل بكل ثقله في هذا المجال ليثبت ذلك، وفعلاً نجح! واستطاع أن يُثبت من خلال هذا الكتاب الاستدلال بالعلم على عقيدتنا، وهذا أوّل كتاب يُطرح فيه هذا الموضوع، ومن يَقرأ الكتاب يتّضح له أنَّه يمثل قمّة نضد تفكير السَّيد الصَّدر والكتاب مهم جدًّا.

تُرجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، وألقيت بعض الأبحاث في

(١) لتفصيل أكثر، لاحظ المصدر السابق، ص٥٥ وما بعدها.

المؤتمر من قِبل الإنجليز في بعض أفكار في هذا الكتاب.

أشرتُ إلى أنَّه كان يربّي الشباب الذين حوله على تغيير نظرتهم حول الكون والحياة الإنسان.

إذا أردتَ التَّغيير لابدّ أولاً أن تغيّر نظرته للحياة، وإذا لم تُغيّر نظرته للحياة لا يستطع أن يُسهم في تغيير الواقع، وهذا أمر طبيعي.

تأتي بشخص لا يقرأ جريدة، ولا يقرأ مجلّة، ولا يقرأ كتاب حديث، جامد على المقرَّرات في الحوزة! هذا يعيش في هامش الحياة ـ مع احترامي له ـ، الذي لا يستطيع أن يفهم هذا الواقع.

لابدّ أن تتفاعل مع هذا الواقع، وتعيش هذه الحياة من أوّلها إلى آخرها؛ حتى تستطيع التغيير.

كان **السَّيد الصَّدر** يدفع طلابه والذين حوله إلى هذا، وكان يكتب في هذا المجال ويطلب أن يكتبوا في هذا المجال، وفي حينه كثُرت الكتابات في هذا المجال، وساهموا إسهامًا كبيرًا للتَّغيير في هذا المجال.

نقطة أخرى أيضًا وهذه للأسف مفقودة عند الكثير: أنا كإنسان أعيش في المجتمع العالمي، أنا عضو في هذا الواقع، وعندما أقول عضو يعني المفروض أن أفهم مركزي في هذا المجتمع، ووظيفتي في خدمة هذا المجتمع.

السَّيد الصَّدر كان يركّز على هذه النَّاحية وكتب وكتب تلامذته في هذا الجانب.

أيضًا وظيفة الإنسان المسلم في هذا العالم، وما هي رسالة الإنسان المسلم لهذا العالَم؟

تجد في (**المدرسة الإسلاميّة**) شيء من هذا، في تفسيره شيء من هذا، وفي كتاباته الأخرى.

أساليب التَّغيير الإجتماعي

فيما يرتبط بأساليب التغيير ـ وهو موضوع المحاضرة ـ **السَّيد الصَّدر** أيضًا قام بدور وَضْع الأسس للنِّظام الإسلامي، وللعقيدة الإسلامية.

فمن خلال (**فلسفتنا**)، وضع النَّظرية الإسلامية التي تعطي الإنسان المسلم نظرته للكون والحياة والمجتمع والإنسان، وهذا لم يكن موجودًا، كانت هناك فلسفة ولكن لم يكن هذه النَّظرية الإسلامية. وطبعًا لعبت دورًا في التَّغيير.

وفي كتاب (**اقتصادنا**)، وضع النَّظرية الأساسيّة للاقتصاد الإسلامي، هو لم يضع النِّظام إنَّما وضع النَّظرية الأساسيّة للاقتصادي الإسلامي.

ومن يأتي بعده يستطع بسهولة أن يضع النِّظام، ولا يلاقي أيّ صعوبة في وضع النِّظام.

كان من المفترض أن يؤلِّف كتاب (**مجتمعنا**)، ولكن...[١].

هذه الأفكار كلّها التي أشرتُ لها بسرعة ـ لضيق الوقت ـ كان **السَّيد الصَّدر** يطرحها كإعادة لصياغة الشَّخصية الإسلاميّة، في الفرد والمجتمع.

نظريّة التغيير الاجتماعي عند السَّيد الصَّدر

لو أردتَ أن تُحاسب نفسك، أنا أُعطيك مقاييس الاختبار لتختبر نفسك: تبدأ بأفكارك التي تحملها والتي تؤثّر على سلوكك، هل هي إسلاميّة، هل كل أفكارك إسلامية؟ أو أنَّ بعض أفكارك إسلاميّة وبعضها ليس إسلاميًّا.

سنرى أنَّ بعض أفكارنا غير إسلاميّة، وهذه الأفكار غير الإسلامية تؤثّر على سلوكي، أتصرّف على أساس من هذه الأفكار، وتصرّفي على أساس من هذه الأفكار، وأنا مسلم أؤمن بالمعاد وأنّي أُحاسب يوم القيامة وأُثاب وأُعاقب، سأُحاسَب على هذه

(١) لم يكمل عبارته.

التّصرفات اللاإسلاميّة.

فإذاً، كان رأي **السَّيد الصَّدر** أن نبدأ بإعادة صياغة الشَّخصية الإسلاميّة عند الأفراد، وفعلاً كان هذا الشيء.

وبعد أن تُعاد صياغة شخصيات الأفراد في ضوء التَّعليمات والأحكام الإسلامية، ننتقل إلى المجتمع كمجتمع، فالمجتمع أيضًا له شخصيّة.

المجتمع هو مجموع الناس الذين يتفاعل بعضهم مع بعض أيضًا له شخصية. هناك أخطاء وهناك مفارقات، فلابدّ من أن نُعيد النَّظر في بناء شخصية المجتمع.

بدأ بناء هذا المقدار، ومن الأعمال التي قام بها في هذا أن اختار ثمانين شابًا ـ عدا شيخًا واحدًا وهو **السَّيد جاسم شبّر** الذي أُعدم رحمه الله، والبقية كلّهم شباب لا يصلون إلى الأربعين ـ، اختارهم ووجَّههم توجيًا جيدًا، ووزَّعهم على على مختلف أنحاء العراق، وفعلاً أثَّروا تأثيرًا جيّدًا، وهذا من أسباب القضاء عليه رحمه الله.

أساليب التَّغيير في الحوزة العلميّة

من التَّغييرات التي أحدثها كانت في المقرَّرات الدِّراسية للحوزة: المقرَّرات للحوزة كُتب بعضها منذ القرن السَّابع الهجري ـ ونحن الآن في القرن الخامس عشر، طبعًا بالنّسبة **للسَّيد الصَّدر** كان في القرن الرَّابع عشر ـ، يعني سبعة قرون هذا الكتاب تُدرس، أَلم يحدث تغيّر في الفكر؟! ألم يحدث تطوّر في الفكر!؟ سبعة قرون ونحن مقلّدون، والاجتهاد إبداعٌ!

الكتاب كُتب قبل سبعة قرون بلغة ذلك العصر وأسلوب ذلك العصر ويفهمه أبناء ذلك العصر، الآن نحن لا نستطيع أن نفهم لغة ذلك العصر ولا أُسلوب ذلك العصر.

انطَلَقَ فغيَّر في الرِّسالة العمليّة، ولم يصدر إلا الجزء الأوّل وأُعدم.

غيّر في الأصول وكَتَبَ (**الحلقات**)؛ الحوزوي الجامد على الفكر الموروث والموجود في هذه الكتب قد لا ينتبه إلى تجديدات السَّيد الصَّدر في هذا الكتاب، ولكن من عنده توسّع ثقافي أو موسوعيّة

ثقافيّة يرى ذلك.

أَدخل الكثير من النَّظريات التي لها علاقة بالفكر الأصولي من علم النفس ومن علم الاجتماع ومن علم التَّربية ومن الفلسفة الحديثة، طبعًا هذا طريق جيّد، هذا نُقلة في عالَم الفكر الحوزوي، ليرتقي ويكون فكرًا معاصرًا.

الإحساس بالمسؤوليّة أمام تحدِّيات العصر

من أساليب التَّغيير عند **السَّيد الصَّدر**، هو غرس الإحساس بالمسؤولية أمام تحدّيات العصر.

هذا العصر يتحدّى الإسلام ـ وهناك كُتب مكتوبة بهذا العنوان: تحدّيات العصر ـ بما يغزو به بلاد المسلمين، سواء عن طريق الإعلام، عن طريق وسائل التَّربية، أو طريق وسائل أخرى.

هذه الحضارة الغربية التي تُفتح علينا دَفعةً وبكل قوّة وخاصة الآن، تتحدى الإسلام، وتريد أن تقوم بعمل اختراقات، فتُلغي الفكر الإسلامي، وإذا لم تستطع أن تلغي الفكر الإسلامي ـ ولن

تستطيع ـ على الأقل تُوجد هلهلة في الأفكار الإسلامية وخلخلة، طبعًا الفكر لا يخلخل، إنَّما يتخلخل في ذهني، ذهني يصبح مضطربًا في فهم الفكرة الإسلاميّة.

كيف نقف أمامه؟ لابدّ أن نشعر بسؤوليتنا، وإذا شعرنا بمسؤوليتنا سنقف أمام التَّحديات.

نُعدّ لها عدّتها ونقاوم هذه التَّحديات.

ما كان **السَّيد الصَّدر** يؤمن بالمواقف السَّلبية، لابدّ من الوقوف إيجابيًا، فالمواقف السَّلبية لا تنفعنا، أعطي مثالاً قد أكون ذكرتُ هذا في محاضرة سابقة:

القنوات الفضائية، هذه انتشرت وستنتشر أكثر، والانترنت ستأتي، ومقاهي الكويت مملؤة منها، وأماكن أخرى.

هذه وسائل إعلامية قد يستفاد منها تجاريًّا، ونقول إنَّ هذا تسويق تجاري، ويُستفاد منها أيضًا في الغزو الحضاري. يقول أحد السَّاسة الغربيين: (**لا نأمن شرَّ الشَّرق إلاّ بإفساد الأخلاق وإضعاف الدِّين**). كيف نُفسد الأخلاق ونُضيع الدِّين؟

القنوات انتشرت انتشارًا رهيبًا جدًا، وهذه لا تنفع فيها فتاوى تحريم، لو أخرجتَ لك مليون فتوى تحريم، حتى هذا المتديّن لن يُخرج التلفزيون من منزله، إذاً كيف نقف مواقف إيجابية؟

إذا كان عندي شعور بالمسؤولية الاجتماعيَّة ـ التي كان **السَّيد الصَّدر** يؤكّد عليها ـ اضع يدي على يدك، ونعمل على أن نُوجد مواقف إيجابية، لنُعطي لأنفسنا مناعة أمام هذا الغزو، قد لا تستطيع أن تردَّ هذا الغزو مئة بالمئة، ولكن تستطيع أن تردَّ هذا الغزو ستين بالمئة مثلاً، وهذا شيء جيِّد، إذا استطعنا إلى هذا الحدّ.

فكان يركّز دائمًا على أن يكون لدينا شعور بالمسؤولية أمام تحدّيات العصر، وهذا ضروري وينبغي أن يكون.

واجب المسلمين تجاه صراع الحضارات

هناك نقطة أخيرة، المسلمون يعانون من فراغ عقائدي ـ لا نقول كلّ المسلمين، لكن كثير منهم ـ نحن نعيش عصر الصراع بين الحضارات، مثل أن تدخل حلبة المصارعة، إذا كنت لا تعرف أن

تتصارع وغير متعوّد على المصارعة ينتهي كل شي بسرعة[١]؛ إذًا لابدّ أن تتدرّب وتتعلّم.

أنا أُريد أن أَدخل حضارات غربية جاءت تغزوني، وأنا أُريد أن أَدخل بحضارتي أُصارع هذه الحضارة، المفروض أن أفهم حضارتي، وهذا الفراغ العقائدي أملؤه بفهم حضارتي، فأفهم الإسلام والمفاهيم الاسلامية التي ترتبط بالحياة، والأشياء الأخرى التي لا ترتبط بالحياة نحن لسنا بحاجة إليها، مثلاً: يأتي أحد يقول، أولاد آدم من تزوّجوا؟ هل تزوّجوا أخواتهم أو خلق الله لهم؟ ماذا تستفيد في حياتك من هذا؟ هل سيسألك الله يوم القيامة عن أولاد آدم؟ أنّما سوف يسألك عن أولادك؟

فالأشياء التي لا ترتبط بحياتنا لا داعي أن نضيع أوقاتنا فيها، وقد تكون هناك أصابع من وراء الكواليس تدفعنا إلى أن نضيع حياتنا في هذا، يجب أن نكون يقظين وواعين، وأن لا نضيع حياتنا

(١) المقطع هنا غير واضح، والمثبت يوافق السياق.

في هذه الأشياء التي لا ننتفع منها.

أحاول أن أدرس وأتعلّم وأفهم، فعن طريق الدِّراسة وعن طريق السؤال وعن طريق القراءة وعن طريق استماع المحاضرات والنَّدوات، أحاول أن أفهم المفاهيم والأفكار والآراء الإسلاميّة التي ترتبط بحياتي بشكل مباشر، وتغيِّر حياتي إلى حياة سويِّة.

وهذا من الأساليب التي اتّبعها **السَّيد الصَّدر**، وتناول هو وطلابه كثيرًا من المشكلات الاجتماعية التي كانت موجودة ـ وبعضها لا يزال موجودًا ـ وكُتب حول هذه المشكلات، وأُلقيت خُطب ومحاضرات وندوات حول هذه المشكلات، وهكذا حصل شيء من التَّغيير في هذا المجال.

المرجعيّة الرّشيدة ودورها في التَّغيير

المرجعية الرَّشيدة التي طرحها **السَّيد الصَّدر**، والتي سمعتم عنها كثيرًا.

ما هي وظيفة العالِم المرجع الذي نسمّيه (نائب الإمام)، والذي

فيه امتداد للإمامة التي هي امتداد للنبوة؟

ماذا كانت وظيفة **النبي** (صلى الله عليه وآله)؟ كانت التَّبليغ وإدارة شؤون المسلمين، وهذا التاريخ موجود ولا أحد يستطيع أن ينكر التأريخ.

الإمام كانت وظيفته أيضًا التَّبليغ وإدارة شؤون المسلمين، فعندما تولّى **أمير المؤمنين** (عليه السلام) السُّلطة قام بالإدارة، وبقيّة الأئمة الذين يتولّون السُّلطة كانوا يُديرون شؤون الشِّيعة، فكانت تُجبى إليهم هذه الأخماس ويستخدمون هذه الأخماس في إدارة شؤون الشِّيعة.

نائب الإمام أيضًا هذه وظيفته:

ـ التَّبليغ عن طريق الإفتاء.

ـ وإدارة شؤون الشِّيعة في العالَم.

وهذا لا يتأتّى إذا بقي المرجع فردًا، لابدّ وأن تكون مؤسسة مثلاً: الأموال والأخماس التي تُجبى من مختلف أنحاء العالَم، وتصبّ في بيوت المراجع، هذه إذا لم تنظَّم تكون الفائدة منها قليلة

وليست بكثيرة، لابدّ أن تنظَّم، وعلى ضوء هذا التَّنظيم توظَّف هذه الأموال بالشَّكل الذي يُستفاد منه.

عندنا قضايا كثيرة الآن، قضيّة البنوك مثلاً: البنك أصبح من ضرورات الحياة، لا يوجد أحد يقول أنا أستغني عن بنك، حتى المرجع الأموال التي تصل إليه تمرّ على البنوك، لم تنزل من السَّماء أو تخرج من الأرض، دراسة البنوك علم من أعقد العلوم الاقتصادية ـ كان ضمن الاقتصاد الآن استقلّ وأصبح علم وأُلِّفت فيه آلاف الكتب ـ وفرد واحد لا يستطيع أن يَدرس هذه البنوك العالمية والبنوك الصَّغيرة. لابدّ أن تكون هناك مؤسسة، هذه المؤسسة توظِّف جماعة تقوم بدراسة البنوك من خلال أنظمتها، ومن خلال معاملاتها، ومن خلال علاقاتها، إلى آخر ما يرتبط بالموضوع.

فالسَّيد الصدر (قدِّس سرِّه) عندما طرح فكرة المرجعيَّة الرَّشيدة؛ لتكون هناك مؤسسة من خلالها يستطيع المرجع أن يُدير شؤون الشِّيعة في العالَم.

هذا خلاصة ما أُريد أن أقوله هنا[١].

طبعًا **السَّيد الصَّدر**، الرَّجل سيبقى يعيش في قلوبنا وضمائرنا وعقولنا، وسيبقى فكره النُّور الذي يضيء لنا دروب الحياة، ولن تستطيع الإمبريالية العالمية بما أُوتيت من قوّة أن تُطفئ هذا النُّور؛ لأنَّ الله يأبى إلا أن يتمّ نُوره ولو كره المشركون.

والحمد لله ربِّ العالمين.

(١) التكملة: وتركت بعض الأشياء رأفةً بنفسي من التَّعب.

المصادر والمراجع

١. أبو زيد العاملي، أحمد عبد الله، محمَّد باقر الصدر: السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت.

٢. آل كاشف الغطاء، محمَّد الحسين، عقود حياتي (من العقد الأوّل إلى العقد الثامن)، تحقيق: أمير الشِّيخ شريف الشِّيخ محمَّد الحسين آل كاشف الغطاء، بدون عدد الطبعة، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م، مدرسة ومكتبة الإمام كاشف الغطاء، النجف.

٣. السيوطي، جلال الدِّين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمَّد أحمد جاد المولى، محمَّد أبو الفضل إبراهيم، علي محمَّد البجاوي، بدون رقم الطبعة، بدون تاريخ الطبعة، دار، إحياء الكتب العربية.

٤. الشهيد الأوّل، القواعد والفوائد ضمن موسوعة الشهيد الأوّل، تحقيق: مجموعة من المحققين، ١٤٣٠هـ، الطبعة الأولى، مركز العلوم والثقافة الإسلامية: معاونية الأبحاث لمكتب

الإعلام الإسلامي في الحوزة العلمية، قم.
٥. الصَّدر، محمَّد باقر، فلسفتنا، ١٤٢٤هـ، الطبعة الأولى، مركز الأبحاث والدِّراسات التخصصية للشهيد الصَّدر (قدس سره)، قم.
٦. الطوسي، محمَّد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال، تحقيق: العلامة المصطفوي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، طهران.
٧. الفضلي، عبد الهادي، تأريخ التشريع الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م، مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
٨. الفضلي، عبد الهادي، هكذا قرأتهم: شخصيات علمية وأدبية راحلة من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر الهجري، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، دار المرتضى، بيروت.
٩. القمي، عبَّاس، الكنى والألقاب، بدون رقم الطبعة، بدون تاريخ الطبعة، مكتبة الصدر، طهران.